

سکامی خرطیل

الطائر السیة اللینیة

(مرشد عمل)



Mouyn

سامي خرطيل

الماركسية اللينينية
مرشد عمل

دار ابن خلدون

حقوق الطبع محفوظة
دار ابن خلدون للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت — كورنيش المزرعة — بناية ريفيرا سنتر

هاتف : ٣١٢٣٣٥

ص.ب : ١١٩٣٠٨

الطبعة الاولى
١٩٧٧

الماركسية — اللينينية

مرشد عمل

مقدمة

ينطلق هذا الكتاب ، من اعتبار العلم قراءة للوجود ، قراءة خالية من القيمة والغاية ، لكون الوجود حياديا ، لا يحوي قيمة أو غاية أو اتجاها . بل هو يسير بحسب قوانينه بشكل متعادل القيمة . وانما الفلسفة هي بحث في القيمة والغايات ، وهي اضافة هذه القيم والغايات (الاهداف) للقراءة العلمية ، لجعل العلم وبالتالي الوجود ذا اتجاه . وبذلك ليست الفلسفة بحثا في الوجود المطلق ولا بحثا في مبادئ الوجود ، ولا هي تصنيف للعلوم ، بل هي بحث في القيمة والهدف .

والماركسية انطلقت من هيغل ، وبقلبه أسست فلسفتها المادية الجدلية وذلك في شباب ماركس وتحت تأثير فيورباخ وضده . لكن ماركس عاد الى الوجود ليدرس الاقتصاد دراسة علمية ، فكان رأس المال . والسؤال المطروح ، هل يتناسق ما جاء في الدراسة العلمية في رأس المال مع ما جاء في الفلسفة التي تكونت في الشباب؟ ان الجواب ، يتناسق مع جزء من هذه الفلسفة والتي اكد فيها على العمل . ولذا كان لا بد من ايجاد فلسفة ماركسية تتناسب مع العلم الماركسي في رأس المال ، وهو ما لم يصنعه ماركس بسبب وفاته . فما الذي حدث ؟ ان الماركسية اليوم هي كل النتاج الذي أخرجه ماركس وانجلز ، وقد جعل محوره المادية الجدلية والمادية التاريخية الموضوعية منذ البداية . فلا تناقض ، بل لوحة متكاملة . بيد أن السؤال لا يزال مستمرا : ألا يوجد تعارض بين النتاج العلمي في رأس المال مع النتاج الفلسفي الذي سبقه ؟ ألا يجب أن نخضع الفلسفة

للإنتاج العلمي ، لا أن نفعل العكس ، كما هو شائع اليوم ؟ هل نخضع ماركس الناضج إلى ماركس الشباب أم نفعل العكس ؟ ألا يجب أن نبحت عن محور آخر نستقيه من رأس المال لا من فلسفة الشباب ؟

إن عرضنا للماركسية يستعيد الوضع الصحيح ، لذا لن نبدا بالتعرض للفلسفة الماركسية كما جرت العادة ، بل سوف ننطلق من منطلق آخر يتناسب مع فهمنا للعلاقة بين الفلسفة والعلم .

في البحث الأول من القسم الأول اتعرض لإنجازات ماركس العلمية في رأس المال بالدرجة الأولى ، وسوف نكتشف أطروحة العمل التي أسس فوقها العلم الماركسي .

وفي البحث الثاني نستعيد التراث الفلسفي الماركسي لنناقشه بحسب ما جاء في رأس المال . بذلك نكتشف تناقضات هذه الفلسفة كما نكتشف جوانبها الإيجابية المتناسقة مع رأس المال . وبالتالي نصل إلى الفصل بين ما هو علم وما هو فلسفة .

وبالطبع ، لقد توجهت بالنقد إلى « ماركسية » أخرى سميتها بالدوغمائية ، وهي تناقض ما أعرضه . بيد أن هناك ماركسية تسير بالاتجاه الذي حددته ، ويمكن إدراج كتابات لوكاش وغرامشي ككتابات رائدة في هذا المجال . ولقد ولدت هذه الكتابات موجة من النقد ، تركز على أنها تستعيد أطروحات « مخطوطات ١٨٤٤ » الإنسانية . بيد أننا نرى على النوال نفسه أن هذا النقد إنما يعمم أطروحات الشباب في العقد السادس (الإيديولوجيا الألمانية — المقدمة والاسهام عام ٥٧ و ٥٩ الخ) ، بيد أن هذا لا يحل المشكلة ، لأن القضية كما سألين هي تتبع تطور ماركس ، وهل يجب أن نفهم رأس المال بحاله ووضعه كآخر نتاج في تطوره أم يجب أن نرغم رأس المال على الاندراج تحت المفاهيم

الاولى ، وهو ما يفعله أصحاب الاتجاه الآخر ، وحيث يغدو الامر بحثا عن الايديولوجية السابقة في رأس المال (١)

لن نحاول في هذه المقدمة انهاء الاشكال، لان هذا هو بحثنا برمته، ومن أجله وضع . لكننا بتنويهنا هذا ، نبهنا الى المحاولات الرائدة لاتجاهنا ، ونبهنا للرأي المعارض أيضا (٢) ، حتى تكتمل الصورة .

-
- (١) كينال ، نص على ذلك التوسير وصرح به : راجع قراءة رأس المال . كذلك محاولات زملائه جاك دانسير ، وبير ماثيري ، حيث نرى القسر والتجاوز الواضح .
- (٢) نضيف الى ذلك هنري لوفيفر في كتابه ماركس وعلم الاجتماع . وأوغست كورنو في كتابه الجيد ماركس وانجلز . والتوسير وجماعة البنيوية .

القسم الاول

نحو فهم الماركسية

((ينبغي عليهم ألا يستعيدوا الماضي بل أن يبنوا المستقبل . فليستعملوا بهدوء وعزم جميع الوسائل التي تعطيهم اياها الحرية الجمهورية ، لكي يوطدوا بصورة أرسخ تنظيم طبقتهم الخاصة ، وهذا ما يمنحهم قوى جديدة ، قوى هرقل للنضال من أجل بعث فرنسا ومن أجل قضيتنا المشتركة — تحرير العمل .))

ماركس : الحرب الاهلية في فرنسا

الفصل الاول

علم العمل

بدأ ماركس من هيجل وفيورباخ ، ثم طور فلسفته باتجاه خاص عرف بالمادية الجدلية والمادية التاريخية . ولم يتوقف عند هذا الحد ، بل انتقل الى الاقتصاد كعلم ليبحث فيه بحثا علميا ، مستخرجا نظرياته التي عرضها في « رأس المال » .

اذن بدأ ماركس من الفلسفة وانتهى بالعلم . بيد أن القضية ليست بهذه البساطة على الرغم من منطلقات أرسطو حول الفلسفة كعلم لمبادئ الوجود وكعلم كلي . إذ ان هدف ماركس هو تكرار اللحظية الارسطية ، ومن هنا كانت عودته للعلم ، كمراجعة مبدئية ، وبذلك يصبح المبدأ نتيجة استقراء ، مثلما حدث مع أرسطو ، وعلى عكس ما يترأى للوهلة الاولى ، وعلى عكس ما تبسطه مختصرات العلم الاول ، فأساس القياس استقراء علمي .

من هنا نحكم أن أبحاث ماركس العلمية ، كانت لمراجعة فروضه الفلسفية ، وليس لاثبات صحتها ، وكأن ما حدث هو تطبيق لمبدأ كلي على أحد فروع الجزئية . ان الفرق الواضح يظهر للتو ، وهو أن ما يصبح فرضا قد يصدق وقد يكذب ، وقد يتعدل الى هذا الحد أو ذاك ، وبالنتيجة يحتاج الامر الى مراجعة أخرى للمنتقلات الفلسفية بحسب نتائج العلم . بذلك يستعيد الموضوع اصالته ، وتكون الفلسفة تالية على العلم لا متقدمة عليه .

والسؤال البديهي ، هل توصل ماركس العالم الى نتائج تعارض فروضه الفلسفية ؟ في رأس المال كشف ماركس أن أساس الاقتصاد هو العمل ، وكشف انه محرك أساسي للتاريخ ، وفيما قبل رأس المال يظهر العمل بدور جزئي ، اذ أن شكل الانتاج هو المحرك الاساسي ، وذلك بتعميم اراء فيورباخ المادية على الاقتصاد لا أكثر ، بعد ادخال الجدل عليها . في رأس المال نجد أن تبعية الانسان الى الاقتصاد هي عملية سحق واستلاب لانسانية الانسان ، على حين أننا نجد فيما سبق رأس المال ان هذه التبعية مبدأ اول في الوجود . ونكتفي بهذين المثليين وهما يشيران بوضوح الى أن الفروض نبذت في العلم ووضع بديل عنها . وهذا يحيلنا بطبيعة الحال الى سؤال آخر ، عن الفلسفة المنتظرة ، والتي كان ماركس قد وضع مخططا لها من دون أن ينفذه .

والماركسية بتأثير من أنجلز ، خففت من وطأة القضية ، بجعلها رأس المال مجرد تطبيق للمبدأ الكلي على أحد فروعها الجزئية ، فالمبدأ صحيح ، وعلم الاقتصاد يؤكد هذا ، وبذلك ما علينا لتنظير الفلسفة الماركسية سوى أن نجمع كل ما قيل وننسقه بحسب المحور الاساسي .

وهذا أجل القضية ولم ينهها ، اذ ليس الامر مجرد دمج ، بل هو طرح اساسي يستعيد الفلسفة من جذورها . اذ ما أسهل أن نجد مكانا ما للعمل ضمن الانظومة بعمل تلفيقي ، وغايتنا الرئيسية تكرار هيجل ، بيد أن التلفيق سيؤجل ولن يحسم ، وسرعان ما يتفجر التناقض .

لم يكن هيجل ليسأل عن العمل أو بالاحرى ليسأل عن الحرية ، فالقضية في نظامه تسلسل منطقي محكم ، لذا لم يجد بأسا بأن ينعت الحرية بكونها خدعة عقلية لا غير . الا أن ماركس — وليسست الوجودية — قد فجر السؤال عن مكان الحرية في النظام ، ما دام العمل أساسيا . فجر السؤال ولم يعط الجواب ، وسوف يردم السؤال ليتفجر من جديد .

و «الدوغمائية» اليوم تكرر عملية التلفيق في ردها على الوجودية، بيد أن هذا التلفيق ابتعاد عن علم ماركس بحد ذاته . والقضية

ليست الصاق الحرية بالحمية بل تبرير هذه الحرية تجاه الحتمية . وهو ما تعجز « الدوغمائية » عنه ما دامت تجري وراء فيورباخ وانجلز واحاديثهما . كل ما هناك ، نقص في الجرأة الهيجلية ، وهي تفصح عن نفسها من دون وجل ، وبانسجام مطلق مع المذهب ، ما الحرية الا خدعة عقلية وحيلة مضحكة .

ان أزمة « الدوغمائية » الحالية ترتد الى العلاقة بين الفلسفة والعلم . بأيهما نبدأ ، ومن يصحح الثاني ، وعندما نقول العلم نقول موضوعه ، نقول الواقع ، وعندما نقول الواقع ، نجد امامنا علاقات وموادا وبشرا . نجد ماركس في رأس المال ، وهو يكشف العمل ومن ورائه الافكار ، كأحد الابوين مع الارض فكيف نصنع فلسفة يقف العمل فيها بجانب الارض ، كيف تضع الحرية في الحتمية ؟ والسؤال أولا وأخرا ماركسي ، كشف عنه ماركس ، ولم يجب عليه ، وشاء خلفاؤه أيسر السبل للخروج من القضية بالاتصاق بهيجل وفيورباخ ، وبالأدعاء ان السؤال سؤال بورجوازي تطرحه فلسفتها الوجودية ، ولن يعجزهم الامر ، لانهم سيجدون في كتابات ماركس الاولى قبل رأس المال أدلة وبراهين عديدة . بيد ان السؤال سؤال ماركسي طموح يستعيد الفلسفة من يديها . بعد أن وجد ماركس القاعدة الصلبة التي سيبني عليها ما يريد ، مفجرا الدوغمائية الاولى التي تحدث عنها عندما كان فيلسوفا ، مستبدلا اياها بالتحليل العلمي للواقع . بانتظار فلسفة أخرى منسجمة مع نتائج العلم .

العمل :

ما العمل ؟ يقول ماركس :

« ان العمل للوهلة الاولى ، فعل يتم بين الانسان والطبيعة ، ويلعب الانسان نفسه فيه دور ثورة طبيعية حيال الطبيعة . وهو يشرع في تحريك القوى التي زود بها جسده ذراعا وساقاه ويداه من أجل أن يتمثل المواد معطيا اياها شكلا نافعا لحياته . وفي الوقت نفسه الذي يفعل فيه بهذه الحركة في الطبيعة الخارجية ويعديلها ، يحور في طبيعته الخاصة وينمي القدرات الكامنة فيها .

« ولن نتوقف عند هذه الحالة الأولية للعمل حيث لم يتجرد بعد من أسلوبه الغريزي الخالص ، ونقطة انطلاقنا هي العمل على شكل ينتمي للانسان حصرا . ان عنكبا ما يقوم بعمليات تشبه عمليات الحائك والنحلة ترى ببنية خلاياها الشمعية أكثر من مهندس ، ولكن ما يميز أسوأ مهندس عن أخير نحلة منذ البداية هو انه يشيد الخلية في رأسه قبل أن يشيدها في القفير ، فالنتيجة التي يؤدي اليها العمل موجودة مثاليا ، مسبقا ، في خيال العامل ، لا لانه يحدث تبديلا في المواد الطبيعية فقط ، بل لانه يحقق بالفعل ذاته هدفا خاصا يعيه ويحدد أسلوب تصرفه كقانون ، ويجب أن يخضع ارادته له . وهذا الاخضاع ليس موقوتا ، فالعمل يقتضي خلال كل مدته علاوة على جهد الاعضاء التي تعمل انتباها متصلا لا يمكن أن ينجم هو نفسه الا عن توتر مستمر للارادة . ويزيد استلزام العمل لذلك كلما قل احساسه بأنه التفاعل الحر لقواه الجسدية والعقلية وبكلمة واحدة كلما كان أقل جاذبية . (١)

العمل اذا هو الاساس ، وهو لا يكون من دون أهداف ومن دون أفكار ، فهذه تسبقه وهذه ميزة الانسان .
ويتابع ماركس موضحا العناصر البسيطة التي تنحل اليها سلسلة أفاعيل العمل :

١ — الفعالية الشخصية للانسان او العمل المحض .

٢ — الموضوع الذي يفعل فيه العمل .

٣ — الوسيلة التي يفعل بها أي الادوات (٢) فالانسان حيوان صانع للادوات » .
يقول ماركس :

« ففعالية الانسان تجري اذن في سلسلة أفاعيل العمل وبواسطة

(١) رأس المال الكتاب الاول ج ١ في ص ٢٨١ ترجمة انطون حمصي ط ٢ دمشق .

(٢) رأس المال ك ١ ج ١ ص ٢٨٢ و ٢٨٤

أدواته تحويلا مقصودا في موضوعه ، وتنطفيء سلسلة الإفاعيل في الإنتاج ، أي في قيمة استعمالها في مادة طبيعية تتمثلها الحاجات الإنسانية نتيجة لتغير في الصورة . أن العمل في امتزاجه مع موضوعه ، قد تجسد ماديا ، والمادة صنعت ، فما كان في نطاق الحركة لدى العامل يبدو الآن في الناتج خاصة من خصائصه في حالة سكون ، فالعامل نسج وناتجه نسيج .»

« وإذا اعتبرنا مجموع هذه الحركة من وجهة نظر نتيجتها أي الناتج فعندئذ تبدو وسيلة العمل وموضوعه على أنهما وسيلتا إنتاج ، ويبدو العمل ذاته عملا منتجا » (١)

ويتابع في الجزء الثاني ما ذكره :

« أن الإنسان يخلق نتاجا بتوقيفه موضوعا خارجيا مع حاجاته ، ويتحد العمل اليدوي والعمل الفكري في هذه العملية ، بصلات لا تنفصم ، تماما كما أن الذراع والرأس في منظومة الطبيعة لا يسير أحدهما دون الآخر » (٢) .

ثم يتوسع بالمفهوم :

« إلا أن تحديدي العمل الانتاجي والعامل الانتاجي يتوسعان بالضرورة منذ البرهة التي يتحول فيها الناتج الفردي الى نتاج اجتماعي ، الى نتاج عامل جماعي تسهم مختلف أجهزته في معالجة المادة بدرجات شديدة التنوع من قريب أو من بعيد أو لا تسهم في ذلك البتة . فلم يعد من الضروري ليصبح المرء انتاجيا أن يعمل يديه هو نفسه في العمل ، بل يكفي أن يكون عضوا من أعضاء العامل الجماعي أو أن يقوم بوظيفة ما من وظائفه . ويبقى التحديد الأولي للعمل الانتاجي ، المولود من طبيعة الإنتاج المادي نفسها صحيحا دائما ، بالنسبة للعامل الجماعي المنظور اليه كشخص واحد ، ولكنه لم يعد ينطبق على كل من أجهزته مأخوذا على حدة » (٣) .

(١) رأس المال ١ ك ج ١ ص ٢٨٦

(٢) رأس المال ١ ك ج ٢ ص ٢٨٧

(٣) كذلك ١ ك ج ٢ ص ٢٨٨

ثم يكتشف النقطة الأساسية بعد هذا الشرح ، والذي لا تبدو أهميته الا في تتبع منحاه ومساره :

« الا ان ذلك ليس هو ما يميز العمل الانتاجي في النظام الرأسمالي تمييزا خاصا ، فالهدف الذي يحدد الانتاج هنا هو فضل القيمة ، فلا يعتبر انتاجيا اذن سوى العامل الذي يرد على الرأسمالي فضل القيمة والذي يخصب عمله رأس المال » (١) .

ليس المهم ان نضع كلمة ونقول هي الاساس ، بل المهم ان نبين ما تمثله هذه الكلمة ، فنراها وهي متجسدة في الواقع ، ونراها وهي تتحرك وتعمل ، كيف تكون الاساس فعلا لا قولاً ، والا فالامر لا يعدو التقرير الدوغمائي ، وعندها فالامر مجرد كلمة لا غير .

والعمل عند ماركس ليس كلمة تقريرية ، هو الاساس فعلا ، وهو يتحرك في الواقع ، وهو ينتج ، وما يصنعه ماركس العالم ليس سوى كشف وبيان حركات ومنحى الفعل .

والامر لا يحتاج لشرح ، فنصوص ماركس واضحة ، على العكس مما يشاع ، فلندعه يتابع :

« ان كل فعالية انتاجية في نهاية المطاف انفاق لقوة انسانية بصرف النظر عن صفتها النافعة » (٢) .

« والعمل هو الشرط الضروري لحياة الانسان من حيث ينتج قيم استعمال ، من حيث انه نافع ، وهو ضرورة أبدية ، وهو وسيط التداول المادي بين الطبيعة والانسان » (٣) .

كيف ينتج القيمة ؟ للسلعة قيمتان :

« السلع بوصفها قيم استعمال هي قبل كل شيء ، مختلفة في الكيف ، أما من حيث هي قيم تبادل ، فانها لا يمكن ان تكون الا مختلفة في الكم » .

(١) كذلك ك ٢ ج ص ٢٨٨

(٢) رأس المال ك ١ ج ١ ص ٨٣

(٣) المرجع السابق ص ٨١

« وعندما توضع قيم استعمال السلع جانباً ، فإنه لا يبقى لها سوى صفة واحدة هي كونها نتاجاً للعمل » (١) .

كيف تقاس ؟

« اننا نقيسها بكم الجوهر (المبدع للقيمة) المحتوى فيها ، بكم العمل » (٢) .

اذن الخلاصة :

« نحن نعرف الان جوهر القيمة ، انه **العمل** ونحن نعرف مقياس كميتها ، انه مدة العمل » (٣) .

وهذا بالنسبة لقيم التبادل ، فماذا عن قيم الاستعمال ؟

« ان قيم الاستعمال ، القماش ، الثوب . . الخ أي أجسام السلع هي تركيبات لعنصرين هما **المادة والعمل** ، واذا طرحنا منها المجموع الكلي لمختلف الاعمال النافعة التي تتضمنها ، فإنه يبقى هناك دائماً راسب مادي، شيء ما توفره الطبيعة ولا يدين بشيء للانسان » (٤) .

اذن الخلاصة :

« فليس العمل اذن المصدر الوحيد لقيم الاستعمال التي ينتجها وللثروة المادية . انه **أبوها والارض أمها** كما قال وليم بيتي » (٥) .

بحسب هذا يجب أن نفهم كل ما صدر عن ماركس . . فهو الأساس الأول لعلم العمل وهو الأساس الأول لفلسفة العمل الهادف .

(١) المرجع السابق ص ٧٥

(٢) المرجع السابق ص ٧٦

(٣) المرجع السابق ص ٧٨

(٤) رأس المال ك ١ ج ١ ص ٨٢

(٥) كذلك ص ٨٢ (كل تأكيد من وضعي) ولنلاحظ أن ماركس قد ذكر هذا الاستشهاد في نقد الاقتصاد السياسي بشكل سلبي .

العمل المستلب :

مر معنا ان العمل يصنع رأس المال بوساطة فضل القيمة، والعمل هو الذي ينتج هذا الفضل . وماركس استخدم الاصطلاح ، بيد أن المقصود يلتبس عندما تؤقنم نظرية ماركس ، وعندما يرفع العمل ويبقى الحديث عن صنمية البضاعة وصنمية القيمة وصنمية رأس المال .

لذا اخترت الاسم المناسب والمعبر، ليكشف عما يريده ماركس ، خاصة وأن ماركس نفسه استخدم تعبير «العمل المستلب» كمرادف لفضل القيمة ، (١) فكيف يستلب العمل ؟

العمل ينزل الى السوق كالسلعة ليبيعه صاحبه . والطبيعة لا تنتج عمالا يبيعون عملهم ورأسماليين يشترون هذا العمل ، وإنما التطور التاريخي والثورات الاقتصادية أدت الى هذا الوضع (٢) .
والعامل عندما يريد بيع عمله يجب أن يكون حرا من ناحيتين :

« أولا : أن يكون العامل شخصا حرا يتصرف طوعا بقوة العمل لديه تصرفه بسلعة يملكها . ويجب ثانيا أن لا تكون لديه سلعة أخرى يبيعها فيجب أن يكون ان صح القول حرا من كل شيء ، محروما تمام الحرمان من كل الاشياء الضرورية لتحقيق طاقته العاملة » (٣) .

ما الذي يحدد ثمن هذه السلعة التي نزلت الى السوق ؟ وبمعنى آخر كيف يتحدد أجر العامل ؟

« ان قوة العمل بوصفها قيمة تمثل كمية العمل الاجتماعي المحقق فيها، الا انها غير موجودة فعلا الا كطاقة او قدرة للفرد الحي، واذا ما نظرنا الى الفرد فانه ينتج قوته الحيوية بالتكاثر أو بمحافظته على نفسه ، وهو يحتاج من أجل صيانة نفسه أو المحافظة عليها الى مقدار من وسائل العيش . فزمن العمل الضروري لانتاج قوة العمل يرتد اذن الى زمن العمل الضروري لانتاج وسائل العيش هذه .

(١) المرجع السابق راجع ك ١ ج ١ ص ٤٦٤

(٢) المرجع السابق ك ١ ج ١ ص ٢٦٦

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٦

أو ان قوة العمل تملك بالضبط قيمة وسائل العيش الضرورية
الذي يضعها موضع العمل .

« وتتحقق قوة العمل بتجليها الخارجي فهي تتولد وتبرز للعيان في
العمل . والعمل يستلزم من جانبه استهلاكاً معيناً لعضلات الانسان
واعصابه ودماغه . وهو استهلاك يجب أن يعوض . وكلما كبر
الاستهلاك كبرت نفقات الإصلاح ، فإذا اشتغل مالك قوة العمل
اليوم ، فيجب أن يكون قادراً على المعاودة غدا ضمن نفس شروط
القوة والصحة . فيجب إذن أن يكفي مجموع وسائل العيش
لحياته في حالة حياته السوية » (١) .

وكذلك تشمل وسائل العيش الضرورية ، وسائل عيش الاولاد
الذين سيحلون محل آبائهم في بيع عملهم ، وتربيتهم ، مع تغطية
كاملة للاستهلاك المستمر يوميا أو اسبوعيا أو سنويا .
نفترض الآن ان كل هذه الوسائل تكلف يوميا ٥ ليرات ، وباع
العامل عمله بهذا السعر خلال زمن معين يكون الوضع صحيحا ،
لكن ما يحدث هو أمر آخر غير هذا .

ان العامل يسلف الرأسمالي عمله ، والرأسمالي يستغل هذا
العمل منميا رأس ماله من دون مقابل .

ان ما يضمن وسائل العيش اليومي يعادل ٥ ليرات ، والعمل
المفترض لقاء هذا المبلغ هو ٥ ساعات مثلا . بيد أن الرأسمالي
يشترى عمل يوم كامل ، ولا يشتري العمل الذي يضمن العيش
للعامل . انه يقدم الاجر اللازم لضمان العيش مقابل العمل خلال
ساعات اليوم الممكنة ، وهي مثلا ١٢ ساعة . فالرأسمالي يدفع
اجر ٥ ساعات ويأخذ عمل ١٢ ساعة بصورة اجبارية . وهذا شرط
شراء العمل . والفرق الزمني هو الذي يشكل فائض العمل الذي
من أجله يشتري الرأسمالي العمل أصلا .

ان العمل الفائض يقاس بكمه أي بزمنه ، وهذا يتحول الى قيمة ،
وما يأخذه الرأسمالي هو فائض القيمة ، وهذا الفائض هو الذي
يخلق رأس المال . (٢)

(١) المرجع السابق ك ١ ج ٢٦٨ و ٢٦٩

(٢) المرجع السابق ك ١ ج ص ٢٦٩ - ٢٧٧ .

العمل يتحول الى قيمة ، الى مال ، والمال يتحول الى سلع ، والسلع تتحول الى رأس مال . والفرق بين المال ورأس المال كامن في العمل ، في عدد ساعات العمل التي يصرفها العامل زيادة عما يضمن له وسائل العيش (١) .

المال يتحول الى رأسمال عن طريق تحوله الى سلع ، وتحول السلع الى مال وفضل قيمة مرة أخرى وبصورة متتابعة . ليس من طبيعة المال أن ينتج فضل القيمة ، والطريق الوحيد للتحويل ناتج عن شراء العمل (٢) .

« فقوة العمل تباع هناك في السوق من أجل أن تستغل في الإنتاج حيث يصبح منبع فضل قيمة وكل شيء على هذا النحو على أفضل ما يرام في احسن العوالم الممكنة » .

« والرأسمالي اذ يحول المال الى سلع تستخدم كعناصر مادية في انتاج جديد بضمه اليها بعد ذلك قوة العمل الحي ، فإنه يحول القيمة — قيمة العمل الماضي الميت ، الذي أصبح شيئاً — الى رأسمال ، الى قيمة حبلى بالقيمة ، الى وحش ذي حيوية ينصرف الى العمل كما لو كان الشيطان يسكن جسده (٣) » .

بمعنى آخر يقسم يوم العمل الى قسمين ، عمل ضروري وعمل اضافي، وفضل القيمة ينتج عن العمل الاضافي للعامل (٤) . واما من الذي يقرر هذا العمل الاضافي فهو : القوة . ان رأس المال ينزع الى التضخم ، كمصاص للدماء ، وذلك بامتصاص أكبر قدر من العمل الاضافي . الشعار الوحيد المطروح هو « العمل حتى الموت » (٥) حتى هنا كانت طريقة الاستغلال بالاستفادة من تمديد يوم العمل

(١) المرجع السابق الفصل السادس .

(٢) المرجع السابق ك ١ ج ١ الفصل الرابع والخامس .

(٣) المرجع السابق ص ٣٠٤ . راجع الفصل السابع

(٤) المرجع السابق : راجع الفصل التاسع .

(٥) المرجع السابق : راجع الفصل العاشر .

وهو ما يسميه ماركس فضل القيمة المطلق . لكن هناك طريقة أخرى للاستغلال ويسميتها فضل القيمة النسبي ، وتنتج « عن اختصار زمن العمل الضروري ، وعن التغيير المقابل في المقدار النسبي للجزئين اللذين يتألف منهما اليوم » (١) .

ما العلاقة بينهما ؟

« ان تمديد يوم العمل الى ما بعد الزمن الضروري للعامل ، لتقديم معادل صيانتة ومنح هذا العمل الزائد لرأس المال: ذلك هو انتاج فضل القيمة المطلق وهو يشكل القاعدة العامة للنظام الرأسمالي ونقطة انطلاق انتاج فضل القيمة النسبي . فاليوم هنا مقسوم بالفعل الى قسمين : العمل الضروري والعمل الزائد (الاضافي) ومن أجل اطالة العمل الزائد يختصر العمل الضروري بطرائق تنتج معادل الاجر بمقدار أدنى من الزمن . ولا يؤثر انتاج فضل القيمة المطلق سوى على مدة العمل ، في حين يحول انتاج فضل القيمة النسبي طرائقه التقنية وتركيباته الاجتماعية تحولا كاملا فهو ينمو اذن مع نمط الانتاج الرأسمالي بالمعنى الحقيقي للكلمة .

« ويتوطد هذا النمط ويعمم ، ويستشعر الفرق بين فضل القيمة النسبي وفضل القيمة المطلق منذ أن يدور الامر حول رفع معدل القيمة . فاذا افترضنا أن ثمن قوة العمل يدفع بموجب قيمتها الصحيحة ، فأننا نصل بديها الى أحد هذين الاحتمالين . فاما أنه لا يمكن رفع معدل فضل القيمة الا بزيادة كثافة العمل او انتاجيته على اعتبار أن حدود اليوم معطاة . واما بالمقابل أن لا يمكن رفع معدل القيمة الا بتمديد لاحق لليوم اذا بقيت كثافة العمل وانتاجيته على حالهما » (٢) .

نتيجة لذلك يتكون رأس المال ، ثم يتراكم رأس المال . يتراكم نتيجة رسلة فضل القيمة وذلك بتسليفها على شكل عمل مأجور في المصنع . (٣) .

(١) المرجع السابق : ك ١ ج ٢ ص ٩

(٢) المرجع السابق ك ١ ج ٢ ص ٢٨٨

(٣) المرجع السابق ك ١ ج ٢ ص ٢٦ و ٢٣ .

الاغتراب : (الضياع ، الاستلاب) : (١)

استخدم هيغل فكرة الاغتراب ، وهي تعني عنده استلاب الطبيعة لفكرة المطلقة خلال الجدال ، وينتهي الاغتراب عندما تعي الفكرة المطلقة نفسها بوعي الانسان لها وقد اكتملت الحلقة .

وقد عكس فيورباخ فلسفة هيغل ، ومن جملة ما عكس فكرة الاغتراب . وهي تعني عنده ، ان يسلم الانسان ما هو خاص به ويحوله الى وجود خارجي متعال عليه ، هو الاله . فكل ماهية الله هي ماهية انسانية ، اغتربت بهذا الاستلاب ، بهذا الخلق للاله .

وقد لحق ماركس هيغل وفيورباخ ، واستخدم الاغتراب ، ولكن ليدل على معنى جديد يتصل بما نحن فيه وهو سرقة العمل الاضافي . ان التاريخ بحث في فعالية الانسان ، والاغتراب هو نزول الانسان المفكر — أعلى ما وصلت اليه الطبيعة — الى مرحلة سابقة ، الى مرحلة الحيوان ، والى مرحلة الاله — المادة — نتيجة لاستغلاله من قبل انسان آخر ، نتيجة لسرقة عمله الاضافي ، ونتيجة لارغامه على بيع عمله ، وعمله ضمن شروط لا أخلاقية ، تحت الحد الأدنى من الشروط الفيزيولوجية للعمل وللحياة .

وهنا نلتقي « بالمادية » الماركسية السابقة ، ولكن بعد ان وضعت في اطار جديد ، يتغلب على تلك السذاجة الاحادية .

ان المعيار الوحيد الان هو العمل ، وهو القوة الاولى والاولى التي بها يكون الانسان اتجاه المادة .

ان كون المادة قوة فعالة على الانسان ليست كذلك لان طبيعة الموضوع يفترض هذا ، بل هي كذلك نتيجة للاغتراب والضياع . نتيجة لاستغلال الانسان ، وعندها يفقد ما هو خاص به ، وما هو كائن بحسبه ، أي كونه الانسان المفكر والمبدع ، كونه الانسان الحامل للأفكار وللقيم ، والمبدل للوجود بعمله ، يفقد كل هذا .

(١) راجع ملاحظة حول استخدام ماركس للضياع والاغتراب . مخطوطات سنة ١٨٤٤ ص ١٧٠ الهامش . نشر وزارة الثقافة دمشق .

ويتنازل عن إنسانيته ، ليعمل كآلة تحت شروط غير إنسانية ،
وليعمل تحت الشروط التي تفرضها عليه هذه الآلة ، وليعمل تحت
الشروط التي يفرضها عليه رأس المال في حركته المتطلبة للتضخم
بصورة مستمرة . فيضيع حريته ، ويصبح تابعا آمينا للاقتصاد
وللالألة والمادة (١) ٠٠

ان رأس المال بحث علمي في الاقتصاد . لكن هناك ما هو هام
ايضا ، ان رأس المال ملحمة أدبية لا تظاهيها الا كتابات عباقرة
الأدب . هناك روايات عديدة تصور البؤس ، بيد أن ماركس ضمن
كتابه العلمي ، في سياق علمي ، أروع رواية للبؤس الإنساني ،
كما ضمنه اقتباسات عديدة تصور أوجه هذا البؤس ، وكأن هذه
الملحمة موسوعة للبؤس الإنساني ، موسوعة للاغتراب ، ذلك
أن هذا البؤس ، ليس أكثر من تبعية الإنسان للاقتصاد ، ليس
أكثر من أن الاقتصاد هو محرك التاريخ ، بكلمة : ما البؤس الا
اغتراب الإنسان . وبكلمة ثانية : ما المادية الا ضياع الإنسان .

على أي ان فكرة الضياع ماثوثة في كتب ماركس الأخرى ،
وخاصة مخطوطات ١٨٤٤ ، مع ذلك يمكننا أن نتبع الأمر لنرى كيف
يفهم ماركس المادية ، وكيف يضيع الإنسان ذاته .

كتب ماركس :

« ان التقسيم الشفلي للعمل يفترض السلطة المطلقة للرأسمالي
على رجال تحولوا الى مجرد أعضاء من آلية تخصه . أما التقسيم
الاجتماعي للعمل فهو يواجه بين منتجين مستقلين لا يعترفون فيما

(١) على هذا النحو نفهم قول ماركس في مقدمة رأس المال للطبعة الألمانية الأولى
(سنة ١٨٦٧) وهو « .. ولكن الأمر لا يدور ، هنا ، حول الأشخاص الا بقدر ما
هم تجسيد لقوات اقتصادية ودعامات لمصالح طبقات معينة ولعلاقات هذه
الطبقات . ووجهة نظري التي تقول أن نمو التشكيل الاقتصادي للمجتمع شبيه
بسير الطبيعة وتاريخها ، أقل من كل وجهة نظر أخرى قدرة على اعتبار الفرد
مسؤولا عن العلاقات التي يبقى ، اجتماعيا — وليدها مهما فعل من أجل أن يتحرر
منها : » رأس المال ك ١ ج ١ ص ٢٣ .

يتعلق بالسلطة الا بسلطة المنافسة ، ولا يعترفون بقوة أخرى خلاف الضغط الذي تفرضه عليهم مصالحهم المتبادلة تماما كما تغذي حرب الكل ضد الكل في المملكة الحيوانية ، شروط حياة كل الانواع بصورة متفاوتة . وهذا الضمير البورجوازي الذي يمجّد التقسيم الشغلي للعمل ، اي الحكم على العامل مؤبدا بعملية تفصيلية واخضاعه السلبي للرأسمالي ، هذا الضمير يصدر صرخات عالية ويغمر عليه عندما يجري الحديث عن المراقبة وعن التنظيم الاجتماعي لسلسلة أفاعيل الانتاج . انه يندد بكل محاولة من هذا النوع بوصفها هجوما ضد حقوق الملكية والحرية وعبقورية الرأسمالي « (١) » .

ما نتائج تقسيم العمل ؟

« . . بل ان الفرد نفسه هو الذي يجزأ ، ويستحيل الى انطلاق لعملية حصرية بحيث تتحقق اسطورة مينينيوس أغريبا اللامعقولة التي تصور انسانا بوصفه شطرا من جسمه الخاص » (٢) .

ان شرط العمل هو ان يبيع العامل بشكل حر سلعة هي عمله وقد باعها الى الرأسمالي ، فما الذي حدث بعدئذ ؟ :

« اما الان فهو يبيع الزوجة والاطفال ، فهو يصبح بائع عبيد » (٣) .

ذلك ان الرأسمالي في جشعه وجد ان تشغيل النساء والاطفال يوفر عليه بعض كسبه ، لانه يشتري عمل هؤلاء بثمن أبخس ، وتكون النتيجة تدهور صحي وأخلاقي وتدهور عقلي . والاهم :

« وبضم كتلة راجحة من الاطفال والنساء الى ملاك العمل التمازج تنجح الالة أخيرا في تحطيم المقاومة التي كان العامل الذكر ما يزال يجابه بها استبدادية رأس المال في الشغل » (٤) .

(١) المرجع السابق ك ١ ج ٢ ص ٦٧

(٢) المرجع السابق ك ١ ج ٢ ص ٧٣

(٣) المرجع السابق ك ١ ج ٢ ص ١١٩

(٤) المرجع السابق ك ١ ج ٢ ص ١٣٠

العامل أصبح آلة ، لكن العكس ، صحيح أيضا الان ، فالالة أصبحت انسانا :

« فوسيلة العمل (الالة) هي منذ ذلك الحين حركة صناعية دائمة تنتج بلا حدود اذا لم تصادف حاجزا طبيعيا في مساعدتها البشريين ، في ضعف أجسادهم وقوة ارادتهم . فالشخص الالة أصبح - بوصفه رأس مال - انسانا في شخص الرأسمالي وان هناك هوى يحركه: فهو يريد ان يمدد المرونة الانسانية وان يسحق كل مقاومتها . ان السهولة الظاهرة لعمل الالة وعنصر النساء والاطفال الاكثر لينا وطواعية يساعدانه في هذا العمل الاستعبادي » (١) .

ان الالة تمدد يوم العمل وتحول اسلوب العمل والطابع الاجتماعي للعامل ، وتنتج عمالا من دون عمل ، (ومضطرين) للخضوع لاية شروط :

« ومن هنا تنجم تلك الظاهرة العجيبة في تاريخ الصناعة الحديثة، وهي أن الالة تقلب كل الحدود الاخلاقية والطبيعية ليوم العمل . ومن هنا تنشأ المفارقة الاقتصادية وهي أن أقوى وسيلة لاختصار زمن العمل تصبح بانقلاب غريب أنجع وسيلة لتحويل حياة العامل واسرته كلها الى زمن متوفر لوضع رأس المال موضع استثمار » (٢) .

لماذا ؟

لان « العامل في الشغل والمهنة يستخدم أدواته ، أما في المصنع فهو يخدم الالة . هنالك تنطلق حركة الاداة منه ، أما هنا فيقتصر على اللحاق بها ، والعمال يؤلفون في الشغل عددا من أعضاء آلية حية مساويا لعددهم ، أما في المصنع فهم مندمجون في آلية معينة توجد بصورة مستقلة عنهم » .

(١) المرجع السابق ك ١ ج ٢ ص ١٣١

(٢) المرجع السابق ك ١ ج ٢ ص ١٣٧

« ان الاطراد الممل للكبح الذي لا نهاية له ، يسببه عمل ميكانيكي واحد دائما ، يشبه عذاب سيزيف ، فثقل العمل كالصخرة ، يعود الى السقوط ، دائما ودون رحمة على العامل وينهكه » (١) .

وهكذا ، وقبل كامو ، ينتبه ماركس الى لا معقولية الحياة تحت ظل الرأسمالية وان اختلف عنه ، فالاختلاف يدور عن أسباب هذه اللامعقولية ، ذلك ان العتب نتيجة من نتائج العمل من دون رحمة . مثلما يختلف عنه في وضع النتائج ، اذ أن اللامعقولية تزول بزوال الاستغلال .

لكن ما العلاقة بين رأس المال والآلة ؟ ألا يفترض أن الآلة ستبقى بعد زوال الاستغلال .
ان العامل « يثور على هذه الصورة الخاصة من الاداة اذ يرى فيها التجسيد التقني لرأس المال » (٢) .

ان شروط العمل القاسية تخرب الحواس ، والاضطراب رهيبه من جراء التعرض للآلة خلال عملها بدءا من العاهات وجرائم القتل الصناعية ، وشروط العمل السيئة ، ودفتر العقوبات مثل سوط سائق العبيد . بذلك يكون العمل سجنا للاشغال الشاقة الملطفة (٣) من ذلك :

« انه لينبغي بعض الوقت والخبرة قبل أن يواجه العمال وقد تعلموا التمييز بين الآلة واستخدامها الرأسمالي ، هجماتهم ضد الاسلوب الاجتماعي لاستثمار وسيلة الانتاج المادية وليس ضد هذه الوسيلة » (٤) .
لان :

« الآلة وهي انتصار الانسان على قوى الطبيعة ، تصبح بين ايدي الرأسماليين اداة عبودية الانسان » (٥) .

(١) المرجع السابق ك ١ ج ٢ ص ١٦٠

(٢) المرجع السابق ك ١ ج ٢ ص ١٦٧

(٣) المرجع السابق ك ١ ج ٢ ص ١٦٢ - ١٦٦

(٤) المرجع السابق ك ١ ج ٢ ص ١٦٩

(٥) المرجع السابق ك ١ ج ٢ ص ٢٤٥

ان الرأسمالية تزيد ساعات العمل : ١١ ساعة ، ١٢ ساعة ،
تزيدها الى « آية ساعة » ناهيك عن الاستخدام السيئ للنساء
ولللأطفال ، حيث يكس هؤلاء مثل « سمك الرنكة »
في غرفة صغيرة عفونتها « تلقي بك أرضا » .
ليعملوا حتى الموت ، ليلا نهارا . والنتيجة مرض ، وازدياد
المصابين بالسل ، فاذا حدثت أزمة ، ازدادت « كمية » المومسات
بعد أن أصبحت النساء من دون عمل . أما التشرييع الخاصة
بالمصانع ، فيمكن تجاوزها كقوانين الصحة . بل ان التشرييع
التي نكرت العمل غير المحدود « عمل الليل ، وتبديد الحياة الانسانية
دون جدوى ودون مبالاة » هذه التشرييع أفضل « قاتل للحشرات »
وأفضل محطم لاواصر الاسرة « ومهما بدا انحلال الاواصر الاسرية
القديمة رهيبا وكريها في البيئة الحالية فان الصناعة الكبرى بفضل
الدور الحاسم الذي تعهد به اجتماعيا قد خلقت ، من هذا الانحلال ،
القاعدة الاقتصادية الجديدة التي سيرتفع فوقها شكل متفوق للأسرة
وللعلاقات بين الجنسين . . . وتكوين العامل الجماعي من أفراد
الجنسين ، ومن كل الاعمار نفسه هذا المصدر للفساد والعبودية
في ظل السيطرة الرأسمالية يحمل في ذاته بذور تطور اجتماعي
جديد ، فالتعفن في التاريخ كما هو في الطبيعة مخبر الحياة » (١) .

خلاصة الامر :

ان سلسلة الافاعيل الانتاجية (العمل) الرأسمالية تحقق عبودية
الفرد ، بانتاجها العمل الاضافي وبالتالي فضل القيمة ، وبالتالي
علاقات اجتماعية محددة بين العامل والرأسمالي ، هذه العلاقة التي
تحطم كل القيم الانسانية وتحول الانسان الى آلة . . الى حيوان . . (٢)
ان الانسان وهو يبيع عمله يفقد انسانيته ، وهذا هو الاغتراب
او الضياع ، انه تحويل الانسان الى تابع للرأسمالي وبالتالي الى

(١) المرجع السابق ك ١ ج ٢ : راجع ص ٢٢٨ - ٢٦٢

(٢) راجع ك ١ ج ٣ ص ٢٤ . ويمكن ان يراجع القارئ في هذا الجزء الاغتراب
قديما .

تابع للالة ولراس المال . ان ميزة التحليل الماركسي هو كشفه لهذا
الجدل ، اذ ليست القضية مجرد ضياع من طرف واحد ، بل هو
وبالدرجة الاولى ، اكتساب المادة الصفة الانسانية ، أي كونها
أصبحت مسيطرة ، تنسوق الانسان ، بعد ان فقد ارادته وأنسانيته .
انه عندما اغترب ، أصبح عبدا وأصبحت المادة (الالة .. الراس
مال) سيدا . وقمة المفارقة في كل هذا ، هي في أن الانسان صانع
للالة ولراس المال !



ان هذا العرض، يطرح بمزيد من القوة ، الوضع الصحيح للانسان
وموقفه من الانتاج . هل هو تابع له أم لا ؟ ان صياغة ماركس لقضية
الاغتراب هذه الصياغة ، تؤكد انه لم يكن ينظر الى الانسان كتابع
لقوانين الاقتصاد ، لان مثل هذه التبعية ، هي الاغتراب المرفوض ،
والمطلوب الثورة عليه .

وهذا مائل عند ماركس منذ البداية ، الا انه ، لم يتخذ منه هذا
الشكل الجذري ، فهو تارة يعتبر الضياع نتيجة للعمل الراهن ،
وتارة ينقل عن ريكاردو ما يشعر بأن الاغتراب هو الحقيقة الكلية،
أو المبدأ العام .

انه يرى أن العامل عندما يبيع عمله ، مضطر لان يبيع نفسه
وان يبيع صفته كإنسان ، فيكون الاغتراب ، « ان خراب وافقار
العامل هما نتاج عمله والثروة التي يخلقها . البؤس الناجم اذن هو
جوهر العمل الراهن » (١) .

بيد أنه ينقل عن ريكاردو قوله :
« .. الامم ما هي سوى معامل انتاج . الانسان آلة للاستهلاك
والانتاج ، الحياة الانسانية رأسمال . القوانين الاقتصادية تحكم
العالم حكما أعمى .. البشر ليسوا شيئا . النتوج هو كل
شيء .. » (٢) .

(١) مخطوطات سنة ١٨٤٤ ص ١٠٦ و ١٠٨

(٢) مخطوطات ١٨٤٤ ص ١٤١ .

يومها كان ماركس لا يزال تحت تأثير المادية الفيورباخية ، وفي رأس المال تعدى ذلك فالعمل والمادة معا . وتبعية الانسان للاقتصاد وقوانينه ليست الوضع الطبيعي . بل هي اغتراب وضياح . أما الوضع الطبيعي فهو استقلالية الانسان وحريته ككائن مبدع وككائن واع وككائن هادف ، يجادل المادة بأهدافه ، وقد اصبحت عملا منتجا يبدل الوجود . وعلى هذا النحو يرسم ماركس الانعتاق من الاغتراب .

الانعتاق :

يتابع ماركس تحليلاته العلمية للاقتصاد . وسنقف قبل هذا ، تاركين العلم لنتقل الى الفلسفة . والسؤال هو أن نميز تلك اللحظة التي تدخل فيها الفلسفة الى العلم . العلم يصف الواقع وهو يخبرنا ان البؤس الانساني يبلغ قمته مع العمل الرأسمالي . والعلم يتنبأ بأنه لا بد أن تتبدل الحالة ، ما دام البؤس قد بلغ أوجه . فيتحطم الرأسمال نتيجة للاغتراب الذي سيتلوه وعي الطبقة العاملة بحقيقة وضعها وبحقيقة أهدافها ، ونتيجة لهذا الوعي تنتظم هذه الطبقة لتثور وتلغي الاستغلال والاغتراب . والان هل هذه النبوءة جزء من العلم أم لا ؟ ثم هذا الاقتراح عن وسائل نفي الاغتراب هل هو من العلم أم لا ؟

لم تستطع الماركسية اللاحقة أن تتغلب على هذه الصعوبة ، لان نبوءة ماركس فهمت كجزء من التحليل العلمي ، وهذه النبوءة تصر على حتمية الثورة في البلاد الرأسمالية . يقول ماركس عن انكلترا : « فهذا البلد سيلعب اذن بالضرورة الدور الاول في الصورة التي نرسمها » (١) .

وقد استغل عدم صدق النبوءة لبيان فساد النظريات العلمية في رأس المال . ولم يتم التغلب على هذه الصعوبة ، لانه لم تحدد بدقة لحظة الانتقال من العلم الى الفلسفة . وهي

لا تستطيع أن تفصل النبوءة عن العلم نتيجة للتصاقها بهيجل . أن
الجدل الهيجلي وجبريته يتفان كعائق قوي أمام الرؤية الصحيحة .
ذلك أن النبوءة الماركسية وإن تعلقت بالضغط الرأسمالي المتزايد،
إلا أنها تعلقت بتنظيم الثورة من قبل الطبقة العاملة التي وعت
مصريها وأهدافها . وكلا الأمرين يجب أن ينظر إليهما من خلال
« نفي النفي » . وبذلك نحيل الموضوع إلى الجدل وحتميته من دون
النظر إلى فعالية الإنسان ، إلا بكونها حلقة من حلقات هذا الجدل،
مفروضة سلفاً ، من هنا الحديث عن حتمية الثورة .

وفي الحقيقة أن الجدل هو الطريقة المسيطرة في استخلاص الأفكار
في رأس المال . وأعم دائرة جدلية هي كما يلي :

الموضوع أو القضية : الإنسان خارج العمل في النظام الرأسمالي .
حيث يشعر بوجوده ، حيث هو حر ، يملك عمله ، وإنسانيته .

النفي : الإنسان وهو عامل ، باع عمله . والعمل ينتج الاغتراب .
الاغتراب هو النفي . النفي الواقعي لإنسانية الإنسان ، النفي
الزمني ، النفي في الطريقة .

نفي النفي : صراع الاضداد ، صراع الطبقات ، والنتيجة الغاء
الضياح ، الغاء الملكية الفردية ، الغاء الطبقات ، إعلان
الاشتراكية (١) ..

نفي النفي : تبديل العالم ، وإعلان إنسانية الإنسان ، بإعطائه
حريته ، بحصوله على حريته المسلوقة ، بعمله وفق هذه الحرية ،
بتعديل الضرورة ، بتبديلها : « لم يفعل الفلاسفة حتى اليوم سوى
تفسير العالم بطرق متنوعة ، والحال أن المقصود هو تغييره . » (٢)
نعم تغيير العالم ، وتغيير الضرورة . بوضع الحرية في صلبها بوضع
الأهداف الإنسانية فيها .

(١) راجع رأس المال ك ١ ج ٢ ص ٣١٦ - ٣٢٠ .

(٢) الفرض الحادي عشر عن فيورباخ ، راجع (لودفيغ فيورباخ) أنجلز ص ١١٠ .

ترجمة فؤاد أيوب : دمشق .

هذا الجدل مائل في رأس المال وفي سواه (١) . بيد أن ما يفسره ، وخاصة المرحلة الأخيرة ، ليس رأس المال ، بل « الماركسية » قبله ، « الماركسية » المتصلة بغيورباخ وبهيجل ، وخاصة بهيجل . على هذا النحو فهم نفي النفي كمرحلة حتمية منطقية وواقعية .

قد يقال أن نتيجة الاغتراب هي سيادة رأس المال ، وبما هو شيء له قوانينه ، وما نفي النفي الا كشف لهذه القوانين . وهذا صحيح ، لكنه يشكل جانبا من الموضوع لان نفي النفي عمل واع وارادي . ولذا فهو يطرح مسألة الحرية التي يأبأها جدل هيجل وجدل الماركسية — فيما عدا رأس المال — .

ان نفي النفي ، يؤكد انسحاب العامل من خضوعه الكلي لرأس المال ، ما دام قد أصبح مضادا له وان بقي داخل المصنع .

وبذلك فان نفي النفي يطرح حدوده ومعناه كقانون يصور الواقع ويتنبأ بما سيكون . ويطرح امكانياته وتعلقه بقوى أخرى تسيره وتجعله هدفا . وبذلك نكون قد حددنا لحظة الانتقال من العلم الى الفلسفة ، وفي الوقت نفسه نكون قد استعدنا عمل الانسان بما هو قوة فعالة تجاه الارض .

و« الماركسية » شاعت الالتصاق بهيجل وحده ، وبحتميته (او بالآخرى جبريته) مؤثرة عدم طرح القضية ، وبذلك فنفي النفي جزء من التحليل العلمي ، والحرية ما هي الا تفهم الضرورة والعمل بحسبها لا غير . وهذا لا يفسر لماذا لم تصدق النبوءة ، كما انه لا يدخل في حسابه التحليل العلمي للعمل كما توضح في رأس المال .

لم يكتب ماركس الفلسفة بعد رأس المال . لكننا نستطيع أن نجد

(١) في العائلة المقدسة ص ٤٠ و ٤١ وفي البيان الشيوعي . الطباق بين البورجوازية والبروليتاريا ونفي النفي زوال الطبقتين معا . في جميع الاحوال نظريا القضية قبل ان يبيع الانسان عمله الاضافي ، أي عندما كان يعمل لحسابه الخاص ، خاضعا لنوع اخر من الاستغلال . والنفي يكون بدءا من عملية البيع نفسها ، بدءا من تشكل الاغتراب .

المؤشرات لتلك الفلسفة بعيدا عن حتمية هيكل ، وكنتيجة لكون العمل هو الاساس .

ان « الخطأ » هنا هو خطأ في التقدير الزمني لا اكثر ، والثورة مشروطة بوعي الطبقة العاملة وتنظيمها لنفسها وبصنعها ما يحطم اغلالها . ولا حل آخر لنفي الاغتراب ، لا حل الا بانتصار حرية الانسان على الاستغلال وعلى العبودية ، والحرية لا تكون الا بالعمل .

اذن فنفي النفي مشروط باستعادة حرية الانسان ، وبوضعه اهدافه موضع التنفيذ . ذلك أن نفي النفي بما هو قانون وصفي للواقع ، لا يشير الى قيمة محددة ، ولا يضع اهدافا ، لانه متعادل القيمة ، مثلما الواقع متعادل . وهو لذلك يتقبل الاهداف المناسبة من أي جاء مصدرها . ولذا طورت الرأسمالية نفسها ، ووضعت اهدافا تؤخر لحظة انفجار الطبقة العاملة . أبدا لا يشير الواقع الى قيمة . وانما الانسان حامل القيمة ، وهو وحده الذي بإمكانه أن يسير الوجود بحسب قيمه . وما حدث هو أن الوجود تقبل قيم الرأسمالية لضعف الطبقة العاملة .

نقطة الافتراق هي تحديد كيفية وضع الانسان اهدافه ، هل يضعها بحسب قيمه أم بحسب الوجود ؟ والماركسية بعد رأس المال ، ونتيجة لعدم كتابة ماركس لفلسفته التالية ، والتصاقا بهيكل ، تجد أن الاهداف توضع بحسب الوجود بما يفرضه الوجود .

ومثل هذا القول يؤدي الى نتيجة تبدل كل معطيات «رأس المال » . انها تجعل الانسان كحامل للاهداف لا يختلف عن النحل الا بوعيه لنعكسات الوجود وما هكذا فهم ماركس الامر . لان (كما نقلت سابقا) الانسان عنده يحقق بالفعل ذاته هدفا خاصا يعيه ويحدد أسلوب تصرفه . فالانسان هو حامل الاهداف الوحيد .

ثم ان مثل هذا القول يجعل الاغتراب حالة كلية بالنسبة للانسان ، لا حالة خاصة اقتضاها العمل الرأسمالي . معنى ذلك أن الانسان في ثورته ينسجم مع الوجود وقوانينه ، فيحقق ما يقتضيه الجدل ، وبذلك يظل تابعا للضرورة ، ويستمر الاغتراب . . والتحليل التاريخي ، يقدم أداة لتبرير هذا المفهوم ظاهريا ، اذ

اننا نجد قبل الاغتراب الرأسمالي الاغتراب الاقطاعي وهكذا نصل الى المشاعة الاولى . فالاغتراب مقترن بالاقتصاد ، واذن فهو حالة كلية مستمرة .

وأخطر ما في هذا التحليل الهيجلي ، كونه لم يعبأ بالغاء الاغتراب بعد الثورة ، وبالتالي يصبح الغاء الملكية الفردية غاية في حد ذاته . وبذلك ينتقل العامل من الاغتراب الرأسمالي الى الاغتراب الاشتراكي كوضع صحيح تفترضه ظاهرة « الاغتراب » بحد ذاتها ، ما دامت الحرية ليست الا تفهم الضرورة ، وما دامت قوانين الاقتصاد هي الحكم النهائي .

بيد أن ماركس اتجه اتجاهها اخرا ، فالثورة عنده انهاء للاغتراب ، والاغتراب عندما ينتهي ، يعني أن أماننا انسانا يعمل وفق أهدافه ، وان أماننا انسانا حرا . وهذا هو الوضع الصحيح .

منذ البداية أشار ماركس الى هذا التصور ، فالانعتاق يعني التخلص من سيطرة الانتاج على الانسان .

يقول ماركس :

« .. ان انعتاق المجتمع من الملكية الخاصة ، الخ ، من العبودية يجد تعبيره في شكل سياسي هو انعتاق العمال ، ليس وكأن الامر هو فقط انعتاقهم ، بل لان هذا الانعتاق يتضمن الانعتاق الكلي للانسان ، والحال هذا متضمن في ذلك ، لان كل استعباد الانسان متضمن في علاقة العامل بالانتاج ولان كل علاقات العبودية ما هي الا تلونات ونتائج هذه العلاقة » (١) .

ويقول بعد ذلك : بعد ربع قرن :

« ولا يمكن استئصال هذه الجمعية (جمعية الاممية) مهما اريق من الدماء . ولاستئصالها ينبغي على الحكومات أن تستأصل طغيان الرأسمال على العمل ، أي أن تستأصل أساس وجودها الطفيلي بالذات . » (٢)

(١) مخطوطات ١٨٤٤ ص ١٨٥

(٢) مخطوطات ١٨٤٤ ص ١٦٤

هو ذلك اذا . من البداية ، الضياع ، العبودية ناتجة عن سيطرة الانتاج ومع الانعتاق تزول هذه التبعية . معنى ذلك أن سيطرة الانتاج ليست قانونا عاما .

حتى الارض تصبح تابعة للانسان :

« ان الغاء الاحتكار الذي بلغ أكبر وأوسع وجود ممكن له ، هو تدميره الكامل . ان الاشتراك المطبق على الارض له من الوجهة الاقتصادية مزايا الملكية العقارية الكبيرة ، وهو أول ما يحقق الاتجاه الأولي للتقسيم أي المساواة ، كما انه يعيد بشكل عقلي وليس بواسطة العبودية والسيطرة وصوفية حمقاء تجاه الملكية علاقة الانسان العاطفية بالارض : فالارض تكف عن كونها موضوع مقايضة ، وبالعمل والتمتع الحر تعود مرة أخرى ملكا حقيقيا وشخصيا للانسان (١)

بيد أن هذه النفحات الفلسفية ، ستلتبس بنقيضها ، وماركس لا يزال تحت تأثير هيجل وجدله ، الى أن يبدأ بحثه العلمي ، فتصبح هذه النفحات ذات طابع عقلاني متناسق في رأس المال :

ونأخذ على ذلك مثلا ، ان من الافكار الشائعة في الماركسية : « ان العالم الديني انعكاس للعالم الواقعي » . وبشكل أوسع ، ان كل عالم الافكار انعكاس لعالم الواقع . وهي جملة تأخذ طابع المذهب الوثوقي (دوغمائي) ، وكأنها فكرة كلية ، مطلقة . ولكن ما عرضناه سابقا ، يجعل هذه الفكرة حالة شاذة تخص مرحلة « النفي » أي مرحلة الاغتراب . ما الدليل ؟ الدليل هو انها ستزول في مرحلة « نفي النفي » أي في مرحلة الانعتاق . الدليل ، ما يقوله ماركس في رأس المال :

« والانعكاس الديني للعالم الواقعي ، لا يمكن عامة ان يزول الا عندما تقدم شروط العمل والحياة العملية للانسان علاقات شفافة وعقلانية مع أشباهه ومع الطبيعة . والحياة الاجتماعية

(١) الحرب الاهلية في فرنسا : ص ١٠٦ دار التقدم - موسكو ١٩٧٠ .

التي يؤلف الانتاج المادي والعلاقات التي يقتضيها أساسا لها ، لن تنفلت من الضباب الصوفي الذي يحجب مظهرها الا في اليوم الذي سيتجلى فيه عمل الناس المتشاركين تشاركيا حرا والمتصرفين تصرفا واعيا والمتحكمين في حركتهم الاجتماعية الخاصة . ولكن ذلك يقتضي في المجتمع جملة من شروط الحياة المادية لا يمكن أن تكون هي نفسها سوى نتاج نمر طويل ومؤلم » (١) .

ولا يمكننا أن نمضي أبعد من هذا ، وقد كان ماركس حذرا في تحليلاته العلمية ، لا يذكر الا ما تقتضيه الحال ، ومن هنا كونه لم يتكلم عن المجتمع المقبل كثيرا . بيد أن مثل هذا الكلام هو ما كنا نتنتظه بعد انشاء النظرية العلمية . لان محل الفلسفة يأتي بعد العلم ، لتخطط ولتضع الاهداف ، وهو ما لم يتم .

لذا كانت الرجعة الى الفلسفة الاولى قبل رأس المال لسد النقص وكأن ماركس لم يتبدل ، وكأن مجهوده العلمي المضني لم يأت الا ليبرهن على صدق مقولات الشباب !

ومن هنا سيسود قول أنجلز « ان المفهوم المادي للتاريخ ينطلق من الموضوعات القائلة ان الانتاج ... هو أساس كل البنية الاجتماعية » (٢) .

وبذلك عمم أنجلز قضية الضياع وجعلها قانونا كليا يلتصق بالانسان الى الابد من دون مفك .

وبذلك ألغى أهمية الانجازات العلمية في رأس المال ، وأخضعها لقوانينه ، فالفلسفة تجر العلم الى صفوفها . هكذا الامر .

ولا بأس بين الحين والحين أن نتحدث عن الحرية ، كوعبي وكتخطيط ، ولكن كوعي للضرورة وما تخطيطه !

وبذلك يركض أنجلز وراء هيجل بدل أن يضع الفلسفة المناسبة للانجاز العلمي في رأس المال .

(١) رأس المال ك ١ ج ص ١٣٤ و ١٣٥ .

(٢) انتي دوهرنغ ص ٣٤٢ ترجمة فؤاد أيوب : دمشق .

خلاصة الامر :

نقد ماركس هيجل وعكس فلسفته ، فأصبحت الضرورة وصفا ماديا ، ثم اتجه للعلم فثبت أن الضرورة المادية يعدلها الانسان المفكر العامل ، بيد أن سوء الوضع الاقتصادي يجعل الانسان فاقدا لاهدافه ولحريته ، وبالتالي يجعل رأس المال انسانا حرا هادفا يسيطر على الانسان ويفقده انسانيته . وتوقف .

سار ماركس من الفلسفة الى العلم ، ومن المفترض أن يرجع بدورة أخرى من العلم الى الفلسفة ليعدل ما هو غير منسجم مع نتائج عمله . وهو ما لم يفعله بسبب وفاته ، لكنه أشار الى أن ازالة الوضع الاقتصادي السيئ يولد الحرية ويعيد للانسان انسانيته . هذه الانسانية التي ليست سوى وعي الواقع ، ووعي الاهداف ، وحرية التصرف لجعل الوجود له .

لا يعني هذا ان ماركس تخلص نهائيا من هيجل ، اذ ظل يعتبر مثله الجدل كفعل خلاق ، يحمل غايات ، من هنا تنبؤه الخاطيء . فالجدل بما هو لوحة تصور الواقع ، هو مثل الواقع ، له مسار ، وليس له غايات يحققها .

يبقى مع ذلك رأس المال كتحليل اقتصادي علمي فريد ، ينتظر الفلسفة التي تخط له الاهداف ، ولتجعله علما انسانيا . وليحل انجلز النقص ، ضم كل ما كتبه ماركس ، فاكتملت الماركسية كفلسفة وكعلم .

بيد أن القضية ليست جمع كلمات ، بل بيان تحليلي . متى يكون العلم ومتى تدخل الفلسفة . أين تقف الضرورة ، وكيف تدخل الحرية ؟ وأطروحات هيجل تغني عن البحث ، ويكفي أن نتبع فيورباخ في القلب ، ثم يكفي أن نحرك فيورباخ الساكن . ففيورباخ يصحح هيجل ، وهيجل يصحح فيورباخ ، ورأس المال على الرف .

لقد كان الراسماليون اذكي ، فوعوا القضية على نحو أفضل ، واطفأوا الحريق ، أو هكذا خيل اليهم . لقد وعوا جيدا ، ان العمل هو الاساس كما بين ماركس ، ووعوا أكثر من هذا أن الوجود لا

يقدم اهدافا ولن ينتج ثورات اذا وضعنا فيه اهدافا اخرى ، وقد وضعوا اهدافهم هم .

وسوف يأتي لينين . لقد تحدى لينين الوثوقية ونازع خليفة انجلز . عاد واتبع طريق ماركس وحلل الواقع تحليلا علميا ، واكتشف أطروحة الامبريالية وتوسعها ، ونبذ (نفي النفي) كقانون يصنع الثورة ، ووضع امكانية قيام ثورة اشتراكية في بلد واحد ولو لم تصدق عليه التحليلات الجدلية ، ووضع أكثر من هذا ، وهو أن الثورة يصنعها التنظيم والوعي والعمل الدائب . وبالعمل الدائب كانت ثورته . وبالجدل الواعي لمعطيات الوجود الموضوعية كان انتصاره .

الفصل الثاني

الفلسفة الماركسية

حدود الفلسفة والعلم :

ان سياق رأس المال يقترح علينا فلسفة تتناسق مع العلم المعروض فيه ، وعلينا أن نبذل جهدا مضاعفا لبيان عناصر هذه الفلسفة ومن ثم لوضع هذه الفلسفة في سياق التاريخ الفكري للبشرية ، لتأخذ مكانها كجواب مكتمل يعلو فوق كل الاجوبة .

والامر ليس هينا ، فرأس المال كتاب علم ، فما العمل ؟ جرت العادة بأن تؤلف الفلسفة الماركسية من تجميع كل ما قيل ، وهكذا يقفز المؤلف من كلمة لماركس الى كلمة لانجلز ، ومن كلمة قيلت في الشباب ، او في حاشية او في مقدمة الى كلمات من هنا وهناك ، ثم يقال لنا هذه هي الماركسية ، الفلسفة المتكاملة . فهل نلجأ الى مثل هذه المحاولات ، لنعرض لوحة متماسكة ، مغمضين العين عن كل الالتباسات ؟ الاجدى أن نتساءل عن الفلسفة التي تكمل علم ماركس الناضج في رأس المال ، من دون أن نعتمد على ذلك الاختيار المنحاز الذي يسوق الكلمات المتناسقة ويتغافل أو يتأول الكلمات المعارضة ، وبذلك نضع آخر انتاج ماركس في سياقه عبر تاريخ ماركس أولا ، وعبر تاريخ الماركسية ثانيا ، وعبر سياق تاريخ الفلسفة أخيرا .

ماذا يقترح رأس المال ؟

انه كتاب علمي يبحث في قوانين المجتمع الحديث الاقتصادية ، وقد كشف عن مقولة العمل الغائي كأساس مبدئي في الانتاج ، وبذلك يتعين لنا طريق البحث الفلسفي عبر هذه المقولة نفسها ، فماذا يمكن للفلسفة أن تقول ها هنا ؟

وحتى نستطيع أن نجيب ، علينا أن نحدد مسبقا ، الحدود الفاصلة التي تميز بين القول الفلسفي والقول العلمي . أين يقف العلم وأين تبدأ الفلسفة ؟ عندها يمكننا ان ننطلق لنحدد موضوع كل منهما .

وهكذا يبدو لنا رأس المال جذريا في طرحه ، يستعيد ، ويتطلب منا أن نستعيد القول الفلسفي من أولياته . وليس من العبث مثل هذه الاستعادة ، فرأس المال وليد هذا العصر ، ومع أزمة العلم المعاصرة تستعاد قضية الحدود ، ولذا فمن الطبيعي وعلى نحو أصيل أن تطرح هذه القضية بدءا من علم العمل أو بدءا من علم الاجتماع الماركسي .

الفلسفة ، بأهم معانيها ، بحث في الوجود ، عند أرسطو ، والسؤال عن الوجود أولي ، وهو موضع اشكال مستمر . وهو ينحل الى سؤالين : عن ماهية الوجود ، وعن مبدئه .

وفي العصر الحاضر نجد الجواب العلمي ، فماهية الوجود ليست الا الذرات وما تحويه من شحنات . ومبدأ الوجود هو ما يضعه العالم كقانون يحدد حالة هذا الكون المصغر .

اذن فالسؤال عن الوجود سؤال علمي ، له جواب علمي ، وبذلك لم يبق ذاك السؤال الفلسفي الاول . واذن فان أهم انجاز معاصر هو نقد التحديدات الارسطية للفلسفة بما هي بحث في الوجود وفي مبادئه الاولى . ولكن ما هو مصير الفلسفة بعد هذا ، وما هو موضوعها بعد هذا الاستبعاد ، هل ننفي الفلسفة وضرورتها ؟

في رأس المال دراسة علمية للوجود الاجتماعي التاريخي ، فهو اذن متابعة للقول بأن دراسة الوجود — وهنا الوجود الانساني —

انما هي دراسة علمية وليست فلسفية ، بيد أن ماركس لم يتوصل من هذا الى نفي الفلسفة ، واذن فالمطلوب هو تحديد جديد لموضوع الفلسفة بعد ذاك النفي للتحديد الارسطي .

لنعد الى هيغل ، فعنده « الفكرة هي المطلق ، هي الوسيطة العالية ، وهي القوة الميتافيزيقية التي لا يقاومها شيء ، انها ميل السبب ليعرف ذاته مرة أخرى ، لكي يتذكر ذاته في كل شيء » (١) في اغترابها في الوجود ، ثم في وعيها لذاتها مع الانسان .

وقد قلب فيورباخ أفكار هيغل ، فالمادة هي المطلق ، وما الفكرة الا انعكاس المادة على وعي الانسان ، وما الفكرة المطلقة الا اغتراب فكرة الانسان وهدفه لتتشياً في ذات خارجية .

والماركسية تأخذ عن فيورباخ قلبه لهيغل ، ثم تصحح مادياً فيورباخ بجدل هيغل وبذلك تتكون المادية الجدلية والتاريخية .

بيد أن هذا التلخيص يبعد أهم العناصر ويلغي الكثير من الاسئلة، فلنتناول الأمر على نحو أقرب ، عبر نص شهير لماركس يقول :

« ولا تختلف طريقتي الديالكتيكية في أساسها عن الطريقة الهيجلية فحسب ، بل هي ، أيضاً — عكسها بالضبط . فحركة الفكر التي يجسمها هيغل تحت اسم المعنى هي صانع الواقع الذي ليس هو سوى الشكل الظواهري للمعنى . أما بالنسبة لي فالامر على العكس ، اذ أن حركة الفكر ليست الا ارجاعاً فكرياً لحركة الواقع، نقلت وحملت الى دماغ الانسان . » (٢)

هنا أيضاً قضية القلب الفيورباخي . فكيف نفهم الامر ؟ وما هي المفصل التي يستعرضها ؟

المادة أولاً ، وهي في تطور مستمر ، نتيجه العليا انتاج الشعور،

(١) يؤس الفلسفة : ماركس ص ١٠٩ ت: ندرة يازجي ط ٢ دار اليقظة دمشق .

(سنة ١٨٤٧)

(٢) رأس المال ١ ج ١ مقدمة الطبعة الالمانية الثانية ص ٣٧ .

الدماغ عند الانسان ، فاذا ما انعكست المادة على الدماغ كانت الافكار . فما لدى الانسان ليس أكثر من قراءة للوجود ، وقراءة الوجود هي العلم ذاته ، فهل معنى ذلك أن كل ما في فكر الانسان هو القوانين العلمية ؟ اذن ما الفرق بين الانسان والحيوان ؟ الفرق هو وعي الانسان أولا ، ثم هو غائية الفعل الانساني ، هذه الغائية التي تتضح بكونه يحمل أهدافا توجه تصرفه كما مر معنا (١) والتي تدل على حريته (٢) فكيف تكون فاعلية الانسان حرة ان جعلنا هذه الاهداف من تلك الافكار التي تنعكس نتيجة لقراءة الواقع ؟ وهل يكون هناك فرق بين الانسان والنحلة ان كانت الاهداف مجرد ارجاع بسيط ؟

اذن لتمييز في عملية القلب عدة أمور متسائلين عما حل بالفكرة المطلقة ؟ عن مكان الانسان ؟ عن فعاليته وغائيته في الوجود؟ بل لنتساءل عن الفرق بين الماركسية والمادية الساذجة ، وعن الفرق بين الماركسية ومادية فيورباخ ؟ وما دلالة ما هو تاريخي بالنسبة للكائن النوعي ؟

المادة أولا ، وهي تنعكس على الدماغ ، بيد أن الانسان التاريخي ليس هو ذاك الانسان البدائي ، حتى نكتفي بمثل هذا الارجاع البسيط ، والفرق الذي يقترحه ماركس ، هو كون « النتيجة التي يؤدي اليها العمل موجودة ، مثاليا ، مسبقا ، في خيال العامل ، لا لانه يحدث تبديلا في المواد الطبيعية فقط ، بل لانه يحقق بالفعل ذاته هدفا خاصا يعيه ويحدد أسلوب تصرفه كقانون ، ويجب أن يخضع ارادته له . . (٣) » لهذا فقط فاعليته هي فعالية حرة » (٤)

الانسان يدرك الوجود ، بيد أنه لا يدرك هذا الوجود مكتوف اليدين وانما يدركه عبر تاريخ الانسانية الذي تحول الى ذاكرته

(١) رأس المال ك ١ ج ١ ص ٢٨١

(٢) مخطوطات ١٨٤٤ ص ١٧٩

(٣) رأس المال : ص ٢٨١

(٤) مخطوطات ١٨٤٤ ص ١٧٩

كأهداف وكفايات ، وكمثل وكتجارب ، كفلسفة وكعلم ، وهو عندما يضع هدفاً إنما يسترشد بكل ذلك الإرث ، فيختار ما يتناسب مع الظرف المحيط به ، ومع ما يدركه من الوجود ، وفي هذا الاختيار إنما تكون حريته .

لقد عكس ماركس هيجل ، مثله في ذلك مثل فيورباخ ، بيد أن الفارق شاسع . أن العكس « أو القلب » يفترض نوعاً من التبادل المتوازي ، وهو ما يؤكده فيورباخ ، وبذلك فإن الفكرة المطلقة عنده تدرج في الوجود (حيناً وفي الإنسان حيناً آخر) من دون أن يتعمق هذا القلب ، ومن دون أن يفطن إلى أن الجبرية الهيجلية ستبقى مع مثل هذا القلب ، وسيبان أكان السبب الأول مزروعاً في السماء أم في الأرض . أما ماركس فيتعدى هذا الأمر في حديثه عن فعالية الإنسان الحر ، وفي حديثه عن الفرق بين الإنسان المهندس والنحلة ، وبذلك نستطيع أن نؤكد أن الفكرة المطلقة عنده لم تدرج كلية في الوجود ، لتستعاد كقراءة له .

لقد عكس ماركس هيجل ، فاعتبر المادة أولاً ، والسؤال الذي يطرح نفسه تلقائياً ، هل أصبحت المادة حاملة لصفات الفكرة المطلقة والتي كانت عند هيجل هي الأولى ؟ هل أصبحت المادة هي المطلق ، هي الوصية العالية هي القوة الميتافيزيقية التي لا يقاومها شيء ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فما ينعكس في الدماغ هو كل شيء ، وبالتالي ، فهذا الذي ينعكس أي العلم ينفي كل فلسفة ، لأنه يقول كل ما هنالك ، وعندها علينا أن نكرر جبرية جديدة ننسبها إلى هذه المادة ، منكرين على الإنسان غائيته ، وبالتالي حريته ، ومنكرين قول ماركس عن الفرق بين النحلة والمهندس ، والجدى أن نكرر مع هيجل حديثه عن الحرية كخدعة عقلية .

بيد أن الأمر ليس كذلك ، فالمادة حيادية ولها قوانينها ، ولم تصبح الوصية العالية ، ولا القوة الميتافيزيقية التي لا تقاوم ، بدليل واحد هو كون الإنسان يبدل الطبيعة وكونه ذا فعالية هادفة ، وبدليل آخر هو كون الإنسان مخترع الفكرة المطلقة من دون أن يكون لها مقابل في الوجود ، أي من دون أن تكون انعكاساً لشيء (لذات) واقعية في الوجود .

فاذا كان العلم ، قراءة للوجود ، يعكس ما في الوجود ، فهو لا يقول القول كله ، وهنا بالذات يتحدد موضوع الفلسفة ، كمكمل لموضوع العلم ، أي أن يكمل القول ، يكمله بالحديث عن الغايات الانسانية ، فالفلسفة بحث في الغائية الانسانية . ما مصدرها ؟ ما هو محل الانسان الحامل لها — الحامل الوحيد — ؟ كيف نبرر هذه الغائية الحرة ؟ كيف يعمل الانسان في الوجود ؟ كيف يتقبل الوجود ذو المسار الحتمي أهدافا انسانية تظهر الحرية ؟ ألا تتعارض هذه الحتمية مع الحرية ؟

ان رأس المال يشير الى الطريق ، وهو ككتاب علمي يقرأ الوجود الاجتماعي لا يجيب ، وعلينا أن نستشف الافاق ، لتحديد الفلسفة المكملة لهذا الكتاب العلمي . عندها فقط ، يمكن أن نقول عن حق ، انه قد صدرت الفلسفة التي تخطت تحديات أرسطو ، الفلسفة التي تقف أمام ذاك الانجاز العلمي الضخم .

الفلسفة بالمعنى الذي يشير اليه ماركس في رأس المال ، هي بحث في الغايات ، أي بحث تخطيطي وتشريعي ، وبذلك يستعيد الحلم اليوناني عن الفيلسوف السياسي ، المخطط والمشرع ، وهذا ما عناه أنجلز عندما كتب « ان الحركة العمالية الالمانية هي وريثة الفلسفة الكلاسيكية الالمانية » (١) .

العلم يقرأ الوجود ، والفيلسوف يحدد الغايات المناسبة لهذا الوجود بشكل برامج بحسبها تكون حركة المجتمع لاستعادة انسانية الانسان المضاعة ، ولحل جميع تناقضات الوجود الانساني ، بدءا من التناقض بين الملكية الخاصة والماهية الانسانية الى التناقض بين الانسان والانسان ، بين الانسان والطبيعة ، بين الحرية والضرورة .. الخ .



على هذا النحو نحدد حدود كل من الفلسفة والعلم ، وبالتالي نحدد الاقوال في الماركسية ، وهي تشهر سلاحها ، لتحارب الفلسفات

(١) لودفيج فيورباخ : انجلز ص ١٠٥ ت : د فؤاد أيوب دار دمشق

المثالية المسخرة لخدمة الرأسمالية والرجعية .
ان كل حديث عن المادة ، انما هو حديث علمي ، اتخذ سمعة
الفلسفة ، ضد المثالية ، من ذلك تحديدات لينين : « ان المادية هي
الاعتراف بوجود « الاشياء في ذاتها » أو خارج الذهن ، وتعتبر الافكار
والاحساسات بالنسبة اليها نسخا أو صورا عن هذه الاشياء . » (١)
« ان المادة أولية ، بينما الفكر والشعور والحساسية منتجات لتطور
متقدم جدا » (٢) .

بيد ان هذه الاحالة الى العمل ضد المثالية لا تحل الاشكال الذي
يظهر بوضوح ، ترى أليس الامر سقوطا في تحديد أرسطو للفلسفة
كبحث في الوجود ؟ أليس الامر ان الماركسية لا تزال ترى أن المادة
تدرس فلسفيا وعلميا ؟

يرى غارودي هذا (قبل ارتداده الاخير) ، فالبحت في المادة
مركب ، وهو يطرح سؤالين هما : ما المادة ؟ وكيف هي المادة ؟
والاول فلسفي والثاني علمي . الاول « وتجيب المادية على هذا
السؤال : هي الواقع الموضوعي المستقل عن الروح والتي لا تحتاج
الى الروح لكي توجد » والثاني « وتجيب المادية على هذا السؤال :
هذه هي مهمة العلم بأن يعطي عن المادة تمثيلا تقريبا متزايدا الكمال
على الدوام » (٣) .

فغارودي ، يعود الى أرسطو ، ليقر معه بأن الفلسفة والعلم
يدرسان الوجود معا ، ولكنه يختر مبادئ الوجود الارسطية
ليجعلها مجرد اقرار لوجود المادة بصورة مستقلة عن الوعي .

ولا يكفي في الرد بأن نقول أن الوجود بحث علمي فحسب ، وان
العلم قد ألغى الاسئلة القديمة « ما ، كيف ، مما .. » ووضع
سؤاله عن الكم . وان الاحالة الى الفلسفة لا تغني ، لان الفلسفة
لا يمكنها أن تضيف الى ما يقدمه العلم أي اضافة مجدية .

(١) المادية والمذهب التجريبي النقدي : لينين ص ١٣ ت : د منير مشابك . داردمشق

(٢) المرجع السابق ص ٦٤

(٣) النظرية المادية في المعرفة : روجيه غارودي ص ٢٣ ت : ابراهيم قريط : داردمشق

لا يكفي هذا لان الاشكال تتعرض له المثالية ، (وعلى وجه الخصوص : بركلي) ولذا فالمادية تنافح باقرار المادة مستقلة عن الادراك بوجودها . بيد اننا نلاحظ ان صيغة الجواب لا تحدد شيئا محددا ، بل تنفي علاقة ، ذلك لان أساس القضية كما صاغها بركلي تحدد الشكل الايجابي (منطقيا) للقضية ، انه ينكر الجوهر المادي (بالمعنى الارسطي = الشيء في ذاته عند كانط) ولا ينكر وجود الأشياء ، وانما يحدد هذا الوجود بالمعرفة ، فالمادة عنده هي المدركة حسييا ، وبما هي أشياء حسية فهي غير مستقلة عن الذي يدركها (١) .

من هنا يأتي الرد المادي في صيغته السالبة لينفي تعلق المادة بالادراك ، وليعلن استقلالها . لكن على اي نحو تستطيع الفلسفة ان تقر المادة بشكل مستقل عن الادراك ؟ اننا لا نستطيع اقرار المادة الا من خلال ادراكها ، الا من خلال جدلنا معها . ان الجدل يفترض تلازم الادراك والمادة ، وما دمنا نحافظ على هذا التلازم ، فيمكن ان نرد على بركلي ، بأن كل ادراك هو ادراك لشيء . وانه لا ادراك من دون وجود لهذا الشيء . لكن الان نكون بذلك قد انسحبنا من دراسة الوجود لندخل نظرية المعرفة ؟ ثم اليس ما يفيدنا ان نتذكر ان هذه النظرية قد أصبحت جزءا من العلم ، علم النفس الحديث ؟ ان الفلسفة لا تستطيع ان تقدم لنا اية مساعدة ، بما تقرره ، وهي بذلك ، لا تضيف شيئا الى العلم ، والعلم وحده يقول الوجود . ما

(١) يوجد سوء فهم تاريخي لهذا الفيلسوف ، نلخص رايه على النحو التالي : ان الوجود بما هو جوهر غير مفكر هو غير فعال ، ولذا لا يصح أن يكون علّة للادراك ، ولذا لا يقوم وحده ، بل يقوم بعقل الله الذي صنعه . ان جوهر المادة هو عقل الله ، وهي موجودة فيه منذ الازل كنماذج ، وما الخلق الا العملية التي أصبحت فيها الأشياء مدركة من قبل الانسان وفقا لقوانين الطبيعة . وهو لا ينكر . وجود المادة ، وانما ينكر وجود الجوهر المادي الذي اقترحه أرسطو ليكون حاملا للاعراض ، ولتقوم به المقولات . فجوهر المادة هو عقل الله . أما الأشياء فهي أشياء حسية ، وبما هي كذلك فهي مجموع الصفات الثانوية والاولية التي يعقلها الانسان ، وهي بذلك غير مستقلة عن الحواس التي تدركها .

المادة ؟ يقول العلم : انها ذرة مؤلفة من بروتونات والكترونات و ..
الخ ٠٠ فما قيمة الانشاء الفلسفي وماذا يضيف ؟



وقد ذهب **أنجلز** هذا النحو ، عندما ذكر أن الماركسية : « ما عادت تحتاج بعد الان الى أية فلسفة تقف فوق العلوم الاخرى ، فلا يكاد كل علم مخصوص يوضح المركز الذي يشغله في التسلسل العام للاشياء ، ولمعرفتنا بالاشياء حتى يصبح العلم المخصوص الذي يعالج ذلك التسلسل أمرا عديم الجدوى (أو غير ضروري) وان ما بقي على قيد الحياة بصورة مستقلة من كل الفلسفة السابقة هو علم الفكر وقوانينه أي المنطق الصوري والجدلية . أما الاشياء الاخرى جميعا فقد ذابت في العلم الايجابي للطبيعة والتاريخ » (١) . « وفيما عدا ذلك ، فاذا لم يعد الامر يتطلب أي فلسفة بعد الان ، فانه ليس اذن ثمة حاجة بعد الان الى أي نظام ، حتى ولا أي نظام فلسفي طبيعي » (٢) .

فهو أولا يرفض الفلسفة كبحت علمي ، مثلما يرفضها كمركز للعلوم ، أو كأم للعلوم فكل ما في الوجود سيتحول الى أجزاء من البحث العلمي .

-
- (١) انتي دوهرنغ : أنجلز ٣٢ ت : د فؤاد أيوب دار دمشق .
(٢) المرجع السابق ص ٤٨ . راجع فيورباخ لانجلز ص ٨٥ و ٨٦ و ١٠٣ .
ان ذكر هذا النص يفينا عن التعرض لنص آخر لانجلز يطلب فيه الفلسفة كام للعلوم . يرى أنجلز أن العلوم قدمت كمية هائلة من المعرفة « حتى ألحت الحاجة على ضرورة تصنيفها في كل حقل مستقل من حقول البحث منهجيا وطبقا لترابطها المتبادل والداخلي . وقد أصبح ملحا أيضا ادخال المجالات المستقلة للمعرفة في الروابط الصحيحة الواحدة مع الاخرى وفي تنفيذ ذلك تدخل العلوم الطبيعية الحقل النظري والطرق التجريبية لن تجدي هنا . لن يفيدنا هنا سوى التفكير النظري .
الا أن التفكير النظري صفة فطرية تتعلق بالقدرة الطبيعية فقط . هذه القدرة الطبيعية يجب تطويرها وتحسينها ، ولأجل تحسينها لا توجد أية وسيلة حتى الان الا دراسة الفلسفة السابقة » (جدليات الطبيعة أنجلز ص ٦١ : محمد اسامة

ثم انه يرى ان ما سيبقى من الفلسفة هو المنطق الصوري والجدلي . وهنا علينا أن نناقش الامر . اذ من المعلوم أن المنهج لا ينفصل عن موضوعه عند هيجل . فديالكتيك الفكر هو نفسه ديالكتيك الوجود ، هو حركة الوجود ، بل هو الوجود نفسه متعاليا في الفكر . كما أنه من المعلوم أن مناهج العلوم لا تقرر بشكل مسبق كمنهج فلسفي الا عندما يكون النهج غير مطبق فعليا ، وانما يعين العالم منهجه خلال البحث وبحسب مساره ، ولذا تفرعت المناهج وتنوعت ، فهل يمكن أن نفرض على العالم نهجا محددا ، لنطالبه باتباعه ؟ لقد اتقن أنجلز الدفاع عن ماركس عندما رفض أن يكون ماركس قد اقحم المنهج الجدلي اقحاما في بحثه ، فما دلالة بقاء منهج ما متعاليا على موضوعه ومستقلا عنه ؟!

لعل الفاصل الزمني بيننا وبين أنجلز هذا الذي يجعلنا نحسم الامر الذي عالج به بحذر ، مؤكدين أن كل علم سيعرض موضوعه ومنهجه بآن واحد ، كما نرى الان تماما ، ولذا ، فليس من مهمات الفلسفة أن تختص بدراسة المناهج أو تحديد قوانين الفكر ، وبذلك ينحل المنطق الصوري الى علم النفس كما ينحل الجدلي الى العلوم التي تستخدمه .

أن نص ماركس عن طريقته المعاكسة لطريقة هيجل تماما ، نص جذري وقطعي ، منعا لاي التباس أو أي نقد (كنقد دوهرنغ) ليس

القوللي . دمشق) .

ولذا أنشأ كتابه جدليات الطبيعة ، أي ليحقق الفلسفة كتنصيف للعلوم ((أن الطبيعة العامة للجدليات ، يجب أن تطور على اعتبارها علم الترابط المتبادل بالمقابل مع الماورائية)) (المرجع السابق ص ٨٦) .

ان مشروع أنجلز يلقي الحد الفاصل بين الفلسفة والعلم ، وحسبنا ما نقلناه عنه في انتي دوهرنغ في أعلاه ، ضد هذا الاتجاه . ولا ننسى ما ذكره عن انتي دوهرنغ والذي يصدق على جدليات الطبيعة أيضا . كتب أنجلز ((ومع ذلك فلعل التقدم في العلوم الطبيعية النظرية يصير مؤلفي نافلا حتى درجة بعيدة ، وبصورة كلية تماما)) (انتي دوهرنغ ص ١٤) .

ما نريد التأكيد عليه أن الفلسفة فضولية على العلم ان قالت في نناجه اية كلمة ، ان فلنبحث عن موضوعها خارج هذا العمل .

الفكر هو الذي يفرض على الواقع صورته ، بل ان الواقع ينعكس في الدماغ . لذا فيمكن القول بشكل مؤكد أن حركة الفكر ليست إلا أرجاعاً لحركة الواقع لا العكس . الأساس هو حركة الواقع لا ما ينشئه الدماغ من جدل ، ولذا يتنوع هذا الجدل بحسب تنوع حركة الواقع وجدله ، وهو ما يكتشفه العالم في الوجود ، لا ما يحدده الفيلسوف . ان جذرية عمل ماركس تتبدى في تطبيقه لهذا النص على دراسة الواقع ، فبدلاً من أن يدرس حركة الفكر كما فعل هيجل ، درس الوجود الاجتماعي وحركته ، جدلياته ، فكان رأس المال . وعندما يلح أن فهم الجدل تشوه ، اذ اتخذ أداة لتبرير الواقع وتمجيدها للأشياء القائمة ، أعطاه الوصف الحقيقي ، فهو جدل صوفي ، هيجلي (١) لانه يسقط على الواقع ما هو في الفكر من دون اعتبار لحركة الواقع .

القضية الأخيرة التي يثيرها أنجلز ، هي أن موضوعات الفلسفة قد ذابت في علمي الطبيعة والتاريخ . وهي قضية تعارض رأس المال وهو ما يجعلنا نحدد وضع أنجلز بالنسبة لهذا الكتاب عامة ، خاصة عندما نستعرض طموحه عبر كتابيه ضد دوهرنغ والجدليات ، اذ لا يزال الصق بمادية فيورباخ . ولم يستطع التوصل الى ذلك الاق الذي استشفه رأس المال . ان أساس هذا الذوبان عنده يرتد الى اعتقاده الجذري التبسيطي لقضية القلب ، بذلك تذوب الفكرة المطلقة في الوجود ، وتنتهي موضوعات الفلسفة لتصبح جزءاً من التحليل العلمي ، وهو ما يناقض أفكار ماركس في رأس المال . وسوف يسود الى حين هذا الرأي التبسيطي والساذج في الماركسية !.

ما ينقد كل هذا هو خاتمة نص ماركس عن طريقته عندما يكتب : « ان الديالكتيك هو أساساً نقد وثورة » (٢) فهل يعني ماركس مجرد حركة الواقع لينفي ذاته ؟ ان كتاباً بأكمله يحلل العمل ، ويستعرض الانسان بما هو فعالية حرة ، انما يستعرض وجهاً آخر من الديالكتيك

(١) مقدمة الطبعة الألمانية الثانية : رأس المال ك ١ ج ١ ص ٢٨ .

(٢) رأس المال ك ١ ج ١ المقدمة الثانية ص ٢٨ .

لم يستوعبه صاحب جدليات الطبيعة ، ونعني جدل الفعالية الحرة مع الوجود ، والذي سوف يحدده لينين عبر مقولتي الوعي والتنظيم . وانما بهذا النوع من الجدل يكون الديالكتيك نقديا وثوريا . ولا يمكن أن يكون الديالكتيك نقديا وثوريا اذا ذابت موضوعات الفلسفة في علمي الطبيعة والتاريخ ، لان نتيجة مثل هذا الذوبان ، هو الغاء دور الانسان الفاعل والفعال ، ليصبح مجرد أداة تعكس الوجود والعلاقات بالدراسة العلمية . والوجود حيادي القيمة والغاية ولذا لا يشير الى نقد ما ولا يشير الى غاية ما ، وبالتالي فان الدراسة العلمية تقدم لوحة عما هو موجود ولا تشير الى قيمة ما ، وانما تضاف هذه القيمة ، والغاية ، والنقد من قبل الفيلسوف بحسب موقعه الطبقي وعلى هذا النحو يكون الجدل ، جدل الانسان مع الوجود ، نقديا وثوريا ، أو تبريريا لما هو قائم .

ان حديث أنجلز عودة الى التحديدات الارسطية والغاء للحدود التي تفصل بين العلم والفلسفة ، وبذلك تصبح الفلسفة علما والعلم فلسفة ، لكن اليس هذا هو ما حاول هيجل تأكيده عبر رحلة الفكرة المطلقة ؟! وسيان بعد ذلك ان اطلقنا على القول اسم الفلسفة أو اسم العلم !

غاية الامر :

العلم الماركسي في رأس المال دراسة للواقع الانساني ، وفيه عمل الانسان والارض حجري الاساس ، وجدلها صانع حركة الواقع . اما الفلسفة التي يشير اليها فهي فلسفة العمل الغائي ، بما أن الانسان ذو فعالية حرة ، هادفة ، واعية ، تخطط بشكل مسبق قبل أن تنفذ . وبذلك تتحدد الحدود بين العلم والفلسفة ، اذ أن العلم دراسة لجدليات الواقع على حين أن الفلسفة تخطيط وتشريع للغايات . من هنا يصبح كل قول فلسفي عن الوجود لا جدوى منه ، كما أنه يصبح كل قول علمي ناقصا ينتظر الفيلسوف ليكملة ، وهو ما سوف يوضحه لنا لينين الايضاح الكامل بعد أن تركه ماركس على شكل اشارات .

جدل الانسان — الوجود :

بدأت الماركسية كثورة ضد المثالية ، تعكس فيها القول المثالي ، وعلى وجه الدقة القول الهيجلي . وقضية العكس كما لاحظنا تولد عدة التباسات ، تحتاج الى مزيد من النظر .

الروح المطلقة ، أو الفكرة المطلقة عند هيجل هي كل شيء في محاولته لتعقيل الاله المسيحي بجمعية مطلقة لا تترك أمرا خارجها . فكيف يكون العكس ؟ كتب أنجلز :

« .. أولئك الذين أكدوا أولية الروح على الطبيعة .. أولئك الفلاسفة يؤلفون معسكر المثالية . أما الفلاسفة الآخرون الذين اعتبروا الطبيعة بمثابة العنصر الأول فينتمون الى مختلف مدارس المادية » (١)

وقد تساءلنا هل تعتبر الطبيعة أو المادة حاملة لكل عناصر الفكرة المطلقة ، ما دامت قد أصبحت هي الاولى ؟ لنشر الى أن عملية العكس ليست عملية عكس بالمعنى الحرفي ، إذ أن هنالك الغاء للروح المطلقة أولا ، وهي تستبدل بروح الانسان ثانيا ، وهذه الروح الأخيرة يتبدل معناها ، فما هي الانتاج الوظيفة الدماغية ، أي الافكار ، ثم ان العكس يصبح عكسا معرفيا ، فكأننا دخلنا نظرية المعرفة ، بعد أن كان الحديث بحثا في الانطولوجيا .

الروح أو الفكرة المطلقة هي الله ، والروح ذات غير مرئية في الانسان عند المثالية ، والماركسية خلال عملية العكس تستخدم هذه الالفاظ ، فهل يرد المعنى نفسه ؟ « ان ازالة ثنائية الروح والجسد من قبل المادية — يعني الاحادية المادية — تقوم في أنه لما كانت الروح لا تملك وجودا مستقلا عن الجسد فهي عامل ثانوي ووظيفة للدماغ وصورة العالم الخارجي (٢) .

وبالتالي تصبح الروح مرادفة للصور أو الافكار حيناً ، وتصبح مرادفة للوظيفة حيناً آخر . وبذلك تنتقل الاولوية الوجودية لتصبح اولية معرفية « لنشر قبل كل شيء الى ان المادية لا تفكر أبدا وجود

(١) فيورباخ : أنجلز ص ٤٩

(٢) المادية والمذهب التجريبي ص ٨٠

الروح . فالفكر موجود والمادة موجودة ، ولا يتعلق الامر برد الفكر الى المادة بل بالبرهنة على أن المادة هي الواقع الاول وان الروح هي المعطى الثاني » (١) .

اذن ان قضية العكس ليست بتلك البساطة التي تتقدم بها ، بل هي تبدل جذري في الطرح والفهم وفي النقل ، المادة لها الاولوية ، والإنسان يعكس الطبيعة بوساطة حواسه ، كرد حاسم على نظرية المعرفة المثالية ، يكمله ادراك الجدل بين الذات والموضوع ، فاذا كانت المثالية ترى أن لا موضوع دون ادراك ، فالرد هو أن لا ادراك من دون موضوع . وما يتكون نتيجة لهذا الادراك ليس ذواتا خفية تسمى النفس أو الروح أو الفكر بل تتكون الصور والافكار ، ولذا فان البحث هنا يرتد ليكون بحثا علميا يحلل عنصري المعرفة في الوجود ، على حين ان الفلسفة لا يمكن لها ان تقدم لعلم النفس اي امر له قيمة .

مع ذلك ، تبقى في قضية العكس الاسئلة نفسها ، اذ يفترض تلقائيا ، ما دامت المادة قد أصبحت أولية - على المستوى الانطولوجي - ان تمتلك خصائص الفكرة المطلقة ، ان تمتلك فعاليتها ، قدرتها الخلاقة المطلقة ، والتي تتحدد بالوعي وبالغائية وبالحركة المتطورة ، فهل نسب الى المادة مثل هذا ؟

» .. اذا ما اثرت مسألة ماهية الفكر والوعي على وجه الدقة وطبيعة مصدرها ، فانه يتضح انها منتجان للدماغ الانساني ، وان الانسان نفسه نتاج للطبيعة ، وقد تطور ضمن محيطه وبصورة متدرجة معه ، وبالتالي فانه من البديهي أن منتجات الدماغ الانساني وهي في اخر تحليل منتجات للطبيعة لا تناقض بقية ترابطات الطبيعة بل هي متوافقة معها » (٢) .

المادة لها الاولوية ، وستحمل كل خصائص الفكرة المطلقة ، بذلك فالطبيعة والاقتصاد والانتاج هو الاول ، وبذلك تستعاد جبرية هيكل الدينية لتصبح جبرية مادية ، لكنها جبرية في كلتا الحالتين .

(١) النظرية المادية في المعرفة : غارودي ص ٢٠

(٢) انتي دوهرنغ : انجاز ص ٤٧ .

هذا ما نص عليه أنجلز بصورة دائمة (الا فيما ندر) وماركس قبل رأس المال بصورة جزئية .

كيف يحدث التبدل في المجتمع ؟ ما عناصر الجدل ؟ كان الجواب أن الوجود حركة ، ونتيجة لهذه الحركة يكون الانسان والمجتمع والافكار ، وكجزء من الجواب : ان الانتاج هو السبب الحاسم في التطور ، فهو خالق الانسان وخالق افكاره : دينا وحقوقا وفلسفة واخلاقا .

كتب ماركس :

« ترتبط العلاقات الاجتماعية وتتعلق بالقوى الانتاجية . ولدى تحقيقا لقوى انتاجية جديدة يغير الناس نوع الانتاج وعند تغييرهم لنوع انتاجهم وعند تغيير طريقة كسبهم لمعيشتهم فانهم يغيرون كل العلاقات الاجتماعية . ان الطاحونة التي تدار باليد تمثل للمجتمع يتحكم به السيد الاقطاعي ، وتمثل الطاحونة البخارية مجتمعات تحكم فيها الصناعة الرأسمالية . ان نفس الناس الذين يؤسسون علاقاتهم الاجتماعية لتطابق انتاجهم المادي ، تراهم ينتجون أيضا المبادئ والافكار واللوائح لكي تطابق علاقاتهم الاجتماعية . وهكذا فان هذه الافكار وهذه اللوائح ليست أبدية كالعلاقات التي تعبر عنها . انها انتاج تاريخي وفترة انتقال » (١) .

وكتب أيضا :

« ان تقسيم العمل خلق المذاهب » (٢) .

« وان ادخال الالة سبب تقسيم العمل ضمن المجتمع . . وسبب أيضا تقسيم الناس » (٣) .

« ليس وعي الناس الذي يحدد وجودهم ، ولكن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم » (٤) .

(١) بؤس الفلسفة ص ١٢ و ١٣

(٢) بؤس الفلسفة ص ١٣٥

(٣) بؤس الفلسفة ص ١٤٥

(٤) نقد الاقتصاد السياسي ص ٧ (المقدمة ١٨٥٩) . ت : د . راشد براوي .

مصر ١٩٦٩ - دار النهضة .

ويقول أيضا هذا القول المتناقض :

« من السخافة أن نقول أن الناس ليسوا أحرارا أن يختاروا قواهم الإنتاجية التي هي أساس كل تاريخهم — لأن كل قوة إنتاجية هي قوة مطلوبة وهي نتاج نشاط سابق — أن القوى الإنتاجية هي نتيجة النشاط الإنساني الواقعي ، لكن هذا النشاط يتعلق بالأحوال التي يجد فيها الناس أنفسهم مرتبطين بالقوى الإنتاجية التي أحرزوها وبالشكل الاجتماعي الموجود الذي لا يخلقونه والذي هو نتاج الأجيال السابقة . وبسبب هذا الواقع البسيط نجد أن كل جيل آت سيري نفسه مالكا للقوى الإنتاجية التي حققتها الأجيال السابقة والتي تخدمه كمواد أولية لإنتاج جديد ولذلك يوجد ارتباط في تاريخ البشر تاريخ الإنسانية الذي يأخذ شكل العلاقات الاجتماعية . ويتبع هذا أن تاريخ الناس الاجتماعي ليس الا تطور الفرد . وعلاقات الناس المادية هي أساس كل علاقاتهم وهذه العلاقات المادية هي الاشكال الضرورية التي يتحقق فيها النشاط الفردي » (١) .

وذكر أنجلز بعد رأس المال :

« أن المفهوم المادي للتاريخ ينطلق من الموضوعة القائلة أن الانتاج انتاج وسائل دعم الحياة الإنسانية ومن بعد الانتاج مبادلة الأشياء المنتجة هو أساس كل البنية الاجتماعية . وأن الطريقة التي يتم بها توزيع الثروة وانقسام المجتمع الى طبقات أو فئات ترتبط في كل مجتمع ظهر في التاريخ بالأشياء المنتجة وكيفية انتاجها وكيفية مبادلة المنتجات . ومن وجهة النظر هذه فإنه ينبغي البحث عن الأسباب الأخيرة لسائر التبدلات الاجتماعية والثورات السياسية ليس في أدمغة البشر ، ليس في فهمهم النامي للحقيقة والعدالة الأبديتين ، بل في التبدلات الطارئة على أساليب الانتاج والمبادلة . أنه ينبغي البحث عن هذه الأسباب ليس في الفلسفة بل في اقتصاديات كل فترة تاريخية معينة » (٢) .

(١) رسالة الى انينكوف سنة ١٨٤٦ : يؤس الفلسفة ص ١٨٤

(٢) انتي دوهرنغ ص ٣٢١ سنة ١٨٨٥

ونذكر ايضا :

« .. وبالمقابل نجد ان العوامل المؤثرة في تاريخ المجتمع الانساني هي فقط اناس يتحلون بالشعور يعملون على اساس التفكير أو الهوى ويسعون الى أهداف معينة فلا يحصل شيء من غير هدف واع وغاية مقصودة . لكن هذا الاختلاف مهما تكن اهميته بالنسبة الى الاستقصاء التاريخي وخاصة في عصور وأحداث معينة — لا يمكن أن يغير شيئا من الحقيقة التالية الا وهي أن مجرى التاريخ يخضع لحكم قوانين عامة داخلية . ذلك اننا نجد هنا ان المصادفة تسود بصورة عامة على السطح حسبما تشير الظواهر رغم الاهداف التي يسعى اليها الافراد على أنفراد عن وعي وشعور .. ولكن حينما تلوح المصادفة سائدة على السطح فالحق انها تخضع على الدوام لحكم قوانين داخلية وما المشكلة سوى اكتشاف هذه القوانين . » (١) .

والقوانين هي الصراع بين الطبقات أولا ، وهذه بدورها مردودة الى أسباب اقتصادية :

ان « .. نضال هذه الطبقات الثلاث الكبرى ، وفي النزاع بين مصالحها تكمن القوى المحركة للتاريخ الحديث . في هذين البلدين الاكثر تقدما على الاقل » .

« ان نشأة هاتين الطبقتين ونموهما ناجمة عن أسباب اقتصادية صرفة ... لقد تشكلت كل من طبقتي البورجوازية والبروليتاريا اثر تحول في الشروط الاقتصادية ، وبعبارة أدق اثر تحول في اسلوب الانتاج .. وعلى هذا فالدولة — اي النظام السياسي — تشكل هنا على الاقل العنصر الثانوي فيما المجتمع المدني اي عالم الصلات الاقتصادية يؤلف العنصر الحاسم » (٢) .

وفي «البيان» المشترك ذكر أنجلز وماركس مخاطبين البورجوازي :
« فأفكاركم نفسها هي نتاج علاقات الانتاج والملكية البرجوازية

مثلما أن قانونكم ليس سوى ارادة طبقتم وقد نصبت قانونا ،
هذه الارادة التي اعطتها الشروط المادية لحياة طبقكم
مضمونها » (١) .

فهنا نجد تأكيدات حاسمة على أن ظروف الحياة الاقتصادية
وأن اسلوب الانتاج هو المحرك الاساسي في التاريخ . وأن القيم
والاهداف تتبع لهذا الاسلوب ، فهو يفترضها وينتجها . فهنا
الاستلاب مطلق وعام . لأن الانسان بحريته وبقيمه وبأهدافه إنما
هو عبد مطلق لاسلوب الانتاج ، حتى الرأسمالي ، فمصلح طبقته
تحددها الظروف المادية .

لنقارن هذا برأس المال ، ألا نجد اختلافا ؟ ألا نجد أن ماركس
قد تطور بوضعه العمل الذي تسبقه الافكار بجانب المادة كمحرك
وكصانع للاقتصاد ؟ ألا نجد أن ماركس يرفض الاستلاب ، وينص
على حرية الانسان ، فاهما الاستلاب على أنه حالة شاذة افترضها
اسلوب الانتاج الرأسمالي ، لا حالة مطلقة ؟ والا فلماذا الثورة ؟
ما دام الاستلاب سيستمر ! وما دام الانسان سيبقى عبدا للانتاج !
أن الثورة الغاء للاستلاب ، الغاء لتبعية الانسان لاساليب
الانتاج .

لقد عمق ماركس اراءه ليصل الى وضع تأثير اسلوب الانتاج
الحاسم والخالق في موضعه الصحيح كحالة استلاب .

اذن أن الفلسفة الماركسية السابقة على رأس المال تحمل الوجود
خصائص الفكرة المطلقة ، ثم جاء رأس المال ليعدل هذا الوضع
الخاطئ في المادية الساذجة ، وليعتبرها حالة شاذة ، وليعتبر
الوضع الحقيقي والصحيح هو الوضع الذي يجادل فيه الانسان ذو
المفعالية الحرة والغائية الوجود ذا القوانين الحتمية الحيادية لا ذا
القوانين الجبرية الغائية الخلاقة . وبذلك فإن الوجود لا يحمل
خصائص الفكرة المطلقة ، ما دامت قوانينه لا تحمل غايات ولا تحمل
قيما تفرضها على البشر ، وإنما الانسان يضع في الوجود قيمه
وقوانينه .

ليس معنى ذلك أن الكتابات الماركسية بكاملها قبل رأس المال

قد نحت نحو هذا الفهم المؤله للانتاج . وكأني بماركس (بل وانجلز
ايضا) يحاولان أن يكتشفا طريقتيها لبناء فلسفة جديدة ، ولذا نرى
اراء مغايرة تناقض القول السابق ، وتفتح الطريق نحو الفلسفة
المناسبة لرأس المال . وليس هناك نقد أفضل لذاك الرأي الحاسم
والنهائي الا ما كتبه ماركس وانجلز :

« ان المذهب المادي القائل ان البشر نتاج الظروف والتربية وان
البشر المتغيرين هم بالتالي نتاج ظروف اخرى وتربية متغيرة ،
ينسى أن البشر هم الذين يغيرون الظروف وان من الامور الاساسية
تربية المربي نفسه » (١) .

وكتب أنجلز :

« وصفوة القول ان الحيوان يستخدم بيئته فقط ويحدث تغييرات
فيها لمجرد وجوده في حين أن الانسان عن طريق تغييراته يجعلها
تخدم اغراضه ، يسخرها . هذا هو الفارق الجوهرى والنهائي بين
الانسان والحيوانات الاخرى . ومرة أخرى فالجهد (العمل) هو
الذي يحدث هذا الفارق » (٢) .
وذكر أيضا :

« العلوم الطبيعية مثلها كمثل الفلسفة أهملت حتى الان تأثير
فعالية الناس في فكرهم اهما لا كلياً ، كلاهما لا يعرف سوى الطبيعة
من ناحية والفكر من الناحية الاخرى . بيد أن تغير الطبيعة من قبل
الناس وليس الطبيعة بحد ذاتها فقط هو بالتحديد أساس الفكر
البشري الاكثر جوهرية ومباشرة » (٣) .
وذكر أيضا :

« .. ان الطبيعة تؤثر في الانسان تأثيرا مطلقا وان الشروط
الطبيعية في كل مكان عينت تطوره التاريخي تعيينا مطلقا هو مفهوم
وحيد الجانب بسبب هذا ، وهو ينسى (دراير وسواه) ان الانسان

(١) غروض (اطروحات) عن فيورباخ : الفرض الثالث في فيورباخ ص ١٠٧

(٢) جدليات الطبيعة ص ٢٤٩

(٣) جدليات الطبيعة ص ٣٢٤

يمارس اثره في الطبيعة مغيرا اياها وصانعا شروط وجود جديدة لنفسه » (١) .

كما ذكرت ، ليس هناك نقد أفضل للمادية الساذجة من هذا النقد ، لانه يستعيد الوضع الصحيح ، ويصحح عملية العكس ويعمق مضمونها . لا المادة وحدها تحرك التاريخ كما رأت المادية السابقة ، ولا الافكار وحدها رافعة لذاك التطور ، بل جدل الطرفين عبر العمل ، وهو ما يحلله رأس المال تحليلًا علميًا .

لقد نظر بصورة دائمة نظرة الشك الى التمييز بين ماركس الشاب وماركس رأس المال ، والى التمييز بين ماركس وانجلز . ذلك أن من أهداف هذا التمييز حينًا ما هو شق الماركسية ونقدها . بيد أننا نرى أن هذا التمييز عملية ايجابية واسباسية لادراك الجدل الماركسي . اذ لا يمكن أن نتصور عدم تطور أفكار انسان ، كما لا يمكن أن نتصور تطابق شخصين . أن كشف الفروق محاولة لفهم هذا التناقض ، ومحاولة لحل هذا التناقض وفقا لآخر انتاج ماركس ، وهو رأس المال ، ومحاولة لتعدي تلك الدوغمائية المتناقضة التي أساءت الى الماركسية ، بتأليه الانتاج ، من دون أن تلتفت الى الاقوال المعارضة ومن دون أن تستوعب رأس المال . **أنجعل الفلسفة الماركسية خاضعة لمقدمة ١٨٥٩ أم يجب أن نجعلها مناسبة لرأس المال ؟**

كتب ماركس :

« ان الصراع بين البروليتاريا والبورجوازية هو صراع طبقة ضد طبقة ، صراع يؤدي الى ثورة عامة ! ليس مدهشًا ان مجتمعاتنا على صراع الطبقات يجب أن يؤدي الى تناقض وحشي ، الى اصطدام جسد بجسد كنتيجة محتومة له . لا توجد حركة سياسية الا وهي حركة اجتماعية » . (الصراع او الموت . الاصطدام الدموي او العدم هكذا يجب ان نضع المسألة : جورج ساند) (٢) .

(١) جدليات الطبيعة ص ٣٢٤

(٢) بؤس الفلسفة ص ١٨٠

وكتب ماركس وأنجلز :

« ان العامل يخلق حتى الانسان . » (١)
وذكر أنجلز :

« يؤكد علماء الاقتصاد السياسي أن الجهد مصدر للثروة جميعا .
وانه بعد الطبيعة التي تؤمن له المادة التي يحولها الى ثروة هو
حقا المصدر . لكنه وبصورة مطلقة أيضا أكثر من ذلك . انه الشرط
الاساسي الاول للوجود البشري جميعه . وهذا باعتماد تفسير
آخر يحملنا الى حد القول ان الجهد خلق الانسان نفسه » (٢) .

وكتب ماركس وأنجلز :

« التاريخ ليس شخصا منفصلا ، يستخدم الانسان كوسيلة
لاهدافه الخاصة . التاريخ ليس سوى فعالية الانسان الذي
يلحق اهدافه » (٣) .

وذكر أنجلز :

« لكن الناس كلما ازدادوا بعدا عن الحيوانات اتخذت اثارهم
في الطبيعة صفة الفعل المتعمد المخطط له الموجه نحو غايات محددة
سابقة التصور » (٤) .
ورد على فيورباخ الذي رد مراحل الانسانية الى تغيرات النظام
الديني فذكر :

« ذلك أن الانتعاطات التاريخية الكبرى لم تكن مصحوبة بتغيرات
في النظام الديني الا بمقدار ما يتعلق الامر بالاديان الثلاثة الكبرى :
البوذية والمسيحية والاسلام » (٥) .
ويكفي هذا الاقرار بأثر الاديان
الكبرى ، مقابل ذلك التأكيد المناقض له : « ان ما تبجح به حتى

(١) العائلة المقدسة ص ١٨ ماركس وأنجلز سنة ١٨٤٤ ترجمة حنا عبود دمشق

(٢) جذليات الطبيعة ص ٢٣٦

(٣) العائلة المقدسة ص ١١٨

(٤) جذليات الطبيعة ص ٢٤٧

(٥) لودفيج فيورباخ ص ٦٧

اليوم يدين به الانتاج للعلم ، لكن العلم مدين بلا حدود للانتاج
بما هو أكثر . » (١)

غاية الامر :

ان العكس لهيجل يطرح اشكالية كبيرة في الفكر الماركسي ، ما
مصر الروح المطلقة وهل ذابت في الوجود ؟ بتأثير من المادية أقـر
بأن الانتاج هو محرك التاريخ ، بيد أن هذا الاقرار لم يكن وحيدا ،
لذا نجد جوابا اخر تستعاد معه أطروحة العمل الهيجلية لتتخذ
سمتا واقعيا ، فالانسان يمتاز عن الحيوان بالعمل وهذا العمل
غائي ، يهدف لتحقيق هدف محدد بشكل مسبق في دماغه ، فالعمل
مسبق بالفكر ، وهو صنو للوجود ، يجادل الوجود ، وبحسب
هذا الجدل يكون التاريخ .

سار الاتجاهان في الكتابات الماركسية ، وبتأثير من أنجلز
وكاوتسكي ثم ستالين ، ونتيجة للتبسيط ، والقبولية ، اعتبرت
الماركسية هي الاقرار الاول . بيد أن الجواب الاخر سينمو وسيكون
موضوع رأس المال الوحيد ، فاذن يمكننا ان نجزم بالاعتماد على اخر
نتاج ماركس ان الماركسية لم تذب الفكرة المطلقة في الوجود ، وان
القلب ليس حرفيا ، بل ان الماركسية انشأت جدلا جديدا ، جدل
العمل الغائي مع الوجود ، وهو الجدل النقدي والثوري ، الصانع
للتاريخ .

أفق الماركسية :

ماذا نفهم من كل هذا ؟

نفهم أن الماركسية مشروع لم يكتمل ونفهم أكثر من هذا ، وهو وجوب
إكمال المشروع بما يتفق مع علم ماركس في رأس المال . أعني انشاء
« فلسفة العمل » الصادرة عن « علم العمل » كبديل عن المادية
الساخرة .

وكمنطلق لا بد من تحقيق نقدين أساسيين ، الاول يشير الى
تناقض المادية مع علم العمل ، والثاني يشير الى تناقض الماركسية

(١) المصدر السابق لودفيج فيورباخ .

المكتملة الان مع الجدل . اعني «الماركسية» التي تظن أن الماركسية يمكن أن تكون فلسفة بصورة مطلقة ، ذلك أن الجدل يشير بشكل حاسم الى أن الفلسفة مشروع نسبي ما أن يكتمل حتى يعود ليكون ناقصا . وبمعنى آخر أن الفلسفة في تكوين مستمر ، بحسب تبدلات الواقع وبحسب تبدلات الاهداف ، فلا حقائق ثابتة ولا أهداف مؤقتة ، وانما بحث علمي مستمر ، وتجاوز فلسفي للاهداف متتابع .

ان عملية « الاكمال » التي حدثت سهلة ، اذ ضم كل ما قيل الى بعضه بعضا ، فأصبح بين أيدينا مذهب متكامل . وأدى أنجلز بقصوره عن ماركس دوره ، ناسخا خطوات ماركس المتقدمة الى الامام ، بالنكوص خطوات الى الوراء باتجاه فيورباخ وهيغل .

لقد سقطت «الماركسية» قبل رأس المال ، وعلى يد أنجلز وأتباعه بعد رأس المال في شرك المثالية ، حاسبة أن القضية تحل بأولوية المادة . ان الهدف الاول للمثالية هو انكار فعالية الانسان في صنع حياته ، وافهامه انه خاضع لقدر لا يستطيع التخلص منه ، لذا فعليه أن يطأطئ رأسه راضيا بوضعه البائس ، من دون أن يفكر بالتبديل والثورة ، لان التبديل ليس من شأنه بل من شأن ذاك القدر .

هذا هو جوهر المثالية ، انه تبرير الوضع القائم كوضع جبري لا فكاك منه . لذا كرهت التبديل دائما ، ولذا شكت وحاربت كل فكرة جديدة على أساس أن قوانينها أظهرت الحقيقة الباطنة والكاملة ، وان ما يحدث من تبدلات انما هو سطحي وعقيم .

والمثالية تدعي الاتصال بذاك القدر المتعالي ، لكنها فعليا وعمليا تقرأ الوجود وحده . ومنه تستخلص قوانينها الجبرية . بذلك فتعاليتها كاذب وانما هي مادية ثابتة ، لان كل ما يتبقى من أحوالها الى القدر المتعالي هو الوجود على ما هو عليه كحقيقة مطلقة يسير على نحو جبري من دون أن يقدر الانسان الثورة عليه .

وعندما حصرت هذه «الماركسية» نفسها في السؤال المغلوط عن الاولوية انزلت الى الشرك نفسه ، جاعلة المادة قدر الانسان ،

ملحقة عليها وعيه وأهدافه . لكن ان كانت المادة أولوية في المعرفة فهي ليست أساس كل تحول ولا مصدر أية قيمة .

ان الطبيعة تجادل الانسان فتتكون الافكار العلمية ، ويضع الانسان القيم والاهداف بما يتناسب مع هذه الافكار . ثم تتجادل القيم والاهداف مع المادة بالعمل . فيتعدل الواقع ، وتتعدل القيم وتنشأ قيم جديدة وهكذا يكون التطور .

ان المادة ، وأسلوب الانتاج متعادلا القيمة في مساره وفي جدله وهو لا يقول لنا أريد طبقة تتمتع بالحياة حتى التخرة ، وأريد طبقة تكدح حتى الموت . وانما يقول هذا الرأسمالي في جشعه ، وهو يضع قيمه الانانية وأهدافه الخاصة موضع التنفيذ . وأسلوب الانتاج لا يقول للكادحين ثوروا ولا يصنع ثورتهم ، وانما يصنع ذلك الكادحون وهم يدركون ويعون وضعهم ، فينظمون أنفسهم ويثورون ضد وضع يدركون انه ليس مطلقا ولا هو بالجبري .

ان الاكتفاء بجدل الوجود هو ميزة المثالية قولا . أما في الفعل فهم أبعد الناس عن هذه الجبرية ، لانهم يضعون أهدافهم وعقيدتهم موضع الفعل وموضع القسر . وما هذه الاهداف والعقائد الا المصالح الذاتية وقد غدت فلسفة مطلقة .

عندما نكتفي بجدل الوجود ، علينا أن ننتظر رحمته ، حتى يطور الانتاج الى اللحظة الحاسمة ، ولكن عند ذلك لن يصنع لنا ثورتنا ، بل سيصنع لنا مقبرتنا وقد طحنتنا اهداف المستغلين . ما يصنع ثورة الكادحين ، هو وعيهم لظروف حياتهم ، وعيهم لاستلابهم ، وتنظيم أنفسهم بحسب أهداف وقيم صحيحة .

من هنا يجب أن نرد ذلك الرأي الذي يحيل التطور الى الانتاج لانه رأي مثالي ، يرمينا تحت أقدام قدر وهمي موجود في المادة . والمادة متعادلة القيمة وحيادية في مسارها .

وعندما نرد هذه «الماركسية» الشائعة التي حاولت تنسيق الكتابات الماركسية حول محور المادية لا نعني تعديل الماركسية ولا رفدها بينابيع جديدة ، ولا نعني تطويرها . انما نعني شيئا واحدا ، هو محورة الماركسية بحسب محور آخر موجود فيها في الكتابات الاولى

وفي رأس المال . انما نعني ان الوضع الطبيعي ان الاساس هو آخر تطورات ماركس وهو العلم ، وما يوافقه في الكتابات الاولى . وليس اساسا ان نطوع آخر الانتاج للبدايات الفجة التي ظهرت نتيجة لتأثيرات فيورباخ وهيجل .

الامر بشكل محدد ما هو الاساس ؟ المادة في جدلها . أم جدل الانسان مع المادة ؟

والامر بشكل محدد هو رد الرأي الاول لانه يلقي فعالية الانسان واهدافه . وليس حلا بأن نغازل المثالية بالحديث عن الوعي والارادة على السطح ، على حين تكون تأكيداتنا لا تزال مستمرة عن الانتاج كعامل أول وحاسم . ان كلمات ماركس ليست مجازية ، ان التطور يرتد الى عاملين متساويين هما العمل وما يسبقه من أفكار والمادة . فالعمل ليس تابعا ولا ملحقا ، انه الند .

من هنا نجد أن طرح السؤال عن أيهما الاول : المادة أم الأفكار هو طرح خاطيء يوصل الى تصنيف تبسيطي يلقي الاهم وهو جدل الأفكار مع المادة بالمعرفة والعمل . والماركسي ليس خاضعا لاجابة مزيفة تحدد المادة كأقنوم وحيد ، بل هو الذي يدرك الجدل بالدرجة الاولى . يدرك جدل الوجود أولا فينشأ العلم ، ويدرك جدل الاهداف الانسانية بالوجود عن طريق العمل فتنشأ الفلسفة ، وتتحدد كعلم للاهداف وكفعل للتجاوز كما شاء ماركس .

تنتج الأفكار من جدل دماغ الانسان مع الوجود وهو يقرأه . والأفكار حيادية مثل الوجود الذي تقرأه . وما يجعلها ذات اتجاه هو وضع قيم الانسان فيها ، بذلك تكون أفكارا هادفة غير حيادية ، وعندما تنزل الى الوجود تتحول الى عمل ينظم الوجود ، وتبدله لصالح الانسان عامة أو لصالح طبقة محددة . الحيوان وحده يعمل من دون أفكار ومن دون غايات ومن دون قيم . وما الاهداف والقيم الا الأديان والفلسفات والمذاهب الاخلاقية والحقوقية . وهي عندما تنزل الى معترك الحياة لا تبدل هذه الحياة فحسب ، بل وتبدل هي أيضا . فالوجود وان كان حياديا لا يقبل أي قيمة وأي هدف . لذا فانه وهو يتعدل يعدل القيم التي يجادلها . وبذلك يتحقق النمو والتطور . خطوة بعد خطوة ، نحو مزيد من الاقتراب من الكمال .

ان خضوع الانسان للمادة ، للانتاج ، حالة جزئية ، وليست مطلقة ، وما فعله انجلز وسواه هو تعميم هذه الحالة ، بذلك ينقلون الاستلاب ليجعلونه حقيقة من حقائق الوجود المبدئية ، بيد أن تحقيق الشيوعية يلغي الاستلاب ، اذا فالاستلاب ليس حقيقة مطلقة في الوجود ، بل هو حقيقة عندما يكون الاستغلال فحسب ، وهو منتف عندما يلغي الاستغلال ، وبكلمة اخرى ان كون الانتاج العامل الحاسم في التطور ليس صحيحا الا عندما يكون الاستلاب كاملا . عندها فقط تتشياً الارادة الانسانية وتتانس البضاعة . وهو ما يزول عندما تنتظم القوى الفعالة وتستعيد دورها ، فتلغي الاستلاب ، وتصبح في جدلها مع الوجود ، بوضعها اهدافها موضع التنفيذ ، العامل الحاسم في التطور .

من هنا كان أهم نقد لبرهان وجود الله الغائي ، وأهم نقد للمادية هو أن الطبيعة تنتظم من قبل الانسان ، بفعل فعاليتها الطالبة مزيدا من الكمال . نعم يتلقى الانسان من الوجود الصور ، ولكنه يعود للوجود ليصنعه من أجل نفسه . فهو الذي يحوله من وجود سديمي — وجود لذاته — الى وجود من أجل الانسان عندما يضع فيه اهدافه وقيمه .

ان كون المادة مصدر الافكار لا يعني انها مصدر القيم والاهداف ، أي مصدر الفلسفة والاخلاق كانعكاس لها . والا فكيف نفسر « النقد » أصلا ؟ اذن يجب أن نجد مصدرا آخر لهذه القيم والاهداف في الانسان نفسه كحامل وحيد لها . وليس من مصدر سوى كون الانسان يسعى للكمال وهو يدرك ما هو كائن على نحو لا يشبع مطلبه . لذا يضع قيما واهدافا ليتجاوز هذا الكائن ، ويتحرك بها نحو الوجود ليلغي النقص وليعدل الخطأ .

والوجود واحد ، بيد أن القيم والاهداف متنوعة . من هنا ازدياد الصراع وتلونات الجدل . ومن هنا اتخاذه سمت الصراع الطبقي . ومن هنا تتبرر الثورة كفعل مشروع ، على حين أن المادية عاجزة عن هذا التبرير ضمن ضرورتها .

نفهم أن الطبقة المسيطرة تفرض القوانين لتدافع عن مصالحها ، اما أن تكون هذه الطبقة مجبرة على وضع هذه القوانين خضوعا

للعلاقات الاقتصادية فهذا ما لا يمكن فهمه . نفهم أن تكون هناك علاقة جدلية بين أفكار هذه الطبقة وانتاجها ، أهدافها تنمي الانتاج وتوجهه لصالحها ، والانتاج يعدل الاهداف بما يتناسب مع مساره . وفي الوقت نفسه نفهم أن تتصنم الآلات وأن يتصنم الانتاج تجاه الطبقة العاملة لا تجاه الطبقة المسيطرة المخططة الواعية لاهدافها .

نفهم أن تعمل الحرية — حرية الطبقة المسيطرة — في الضرورة ، وأن تعمل الضرورة في الحرية . أما أن تكون الضرورة المادية هي كل شيء ، فهذه هي مثالية هيجل التي نهرب منها . وأكثر من هذا . انها تبريرية هيجل التاريخية ، فما ذنب الرأسمالي ؟ انه هو الآخر مسكين ومسحوق ومستلب !! لا ذنب له . بيد أن الواقع أن للرأسمالي ذنبه وأذنبه .

ذكر ماركس قبل رأس المال :

« أيها السادة لا تخذعوا أنفسكم بالكلمة المجردة — الحرية — حرية من ؟ انها ليست حرية شخص بعلاقته مع شخص آخر ، لكنها حرية رأس المال الذي يعمل على أن يحطم ويقضي على العامل » (١) .

هذا ما عناه هيجل بأن كل واقعي هو عقلي . لا لوم على الواقعي ، على البورجوازي ، فهو ليس حراً في استغلاله العامل ، بل هو خاضع لضرورة رأس المال . فاذا استخدم الأطفال والنساء فهو مجبر ، لأن ضرورة رأس المال الجشعة تلزمه بذلك ! انه ليس جشعاً ، لا ، بل هو مثل الطفل في براعته ولذا يجب أن لا نثور ضده ، ولا يجب أن نغضب ، فنحن وهو لسنا أحراراً ، ولنتنظر جدل الضرورة لتصنع البديل ، فنتظلمنا لتصنع ثورتنا ! ان الثورة حتمية لانها مفروضة من الضرورة ولانها من صنع الضرورة . لنتنظر وستفعل الضرورة فعلها .

هذه الآلية خاطئة ومرفوضة لانها تلغي الجدل الحقيقي . ونقول الجدل حتى لا يظن أن عكس هذه الآلية هو الصحيح . بمعنى أن

(١) بحث في التجارة الحرة ، خطاب القى سنة ١٨٤٨ . تجده في يؤس الفلسفة ص ٢٢٦ .

أهداف الإنسان واراادته هي العامل الوحيد في صناعة الوجود .
 ان الرأسمالي مسؤول ، وهو ليس عبدا للإنتاج كالعامل . وخلف
 الاعتقاد بعبوديته يكمن فهم خاطيء للحرية . ذلك أن الإنسان بما
 هو من الوجود خاضع لمساره الحتمي ، بيد أنه ينال حريته من كونه
 حاملا للأهداف والقيم ، وهو عندما يجعل هذه الأهداف والقيم
 أساس حركته في الوجود ، إنما يكون حرا ومسؤولا عن عمله .
 وهو يفقد حريته عندما يخضع لأهداف وقيم غيره ، لا لأنه يخضع
 لمسار الوجود . من هنا فإن الشيوعية لا تعني الا وضع أهداف
 وقيم الاكثرية الكادحة كأساس لحركة الكادحين وكبديل عن أهداف
 وقيم الرأسمالي . وهذه هي الحرية التي تبشر بها . إنها تلغي جدلا
 مؤقتا مزيفا بين قيم وأهداف خاصة وعامة لتستعيد الجدل الحقيقي
 بين الإنسان والوجود ، لتحقيق مزيد من السيطرة على مسار
 الوجود .

على هذا الأساس من استعادة الجدل الحقيقي ، ننقد ذاك الفهم
 الالي للعلاقة بين البنى التحتية والبنى الفوقية ، والذي تتحول فيه
 العلاقة الجدلية لتصبح عملية خلق يقوم بها الإنتاج للأفكار .
 لقد استند (بضم الهمزة) الى رأي
 انجلز عن مناسبة الاله اليهودي للخضوع
 البشري للقوى الغربية الطبيعية والاجتماعية (١) لتبرير عدم نقد
 الدين ما دام يمثل هذه القوى المسيطرة، فهو انعكاس لها ، وعندما
 تنتفي هذه السيطرة سيزول الدين تلقائيا ، فكيف ننقد الدين قبل
 الاوان وننسى ضرورته؟! وعلى ذلك يجب أن نبين خطأ ذاك الإنسان
 الذي يرفض يهووه ويجب أن ننصحه بالإيمان بالوهم حتى تبقى الامور
 متكاملة : الشيء ومنعكسه !

تلك آلية غير واعية ، لا تفهم العلاقة الجدلية بين الإنسان
 والوجود ، بل وتنفيها لتقيم سخفا من القول . ان زوال الوهم لن
 يأتي بصورة آلية بعد زوال السيطرة ، وإنما سيأتي نتيجة للجدل
 الطويل بين الإنسان والوجود ، بكشفه الوهم وبفضح الخطأ
 والتزييف في الفكر الديني وفي كل فكر واستبدالها بفكر واع ونير .

أمر آخر يعكس هذه الآلية ، ذكر انجلز :

« ... ان سائر النظريات الاخلاقية كانت حتى هذا التاريخ في آخر تحليل نتاجا لوضع المجتمع الاقتصادي السائدة في زمنها . وما دام المجتمع قد تطور حتى الوقت الحاضر ضمن التضادات الطبقة فان الاخلاق قد كانت على الدوام أخلاقا طبقية . فهي اما أن تبرر سيطرة الطبقة الحاكمة ومصالحها ، واما أن تمثل ، حالما تحوز الطبقة المضطهدة ما يكفي من القوة ، التمرد على تلك العقيدة ومصالح المضطهدين المقبلة في الوقت نفسه » (١) .

مرة أخرى البنى الاخلاقية تعبر عن الوضع الاقتصادي ، مع نسيان جدل الاقتصاد مع الانسان ، وجدل الانسان مع الانسان . نفهم ان تصنع الطبقة المسيطرة أخلاقا وقوانين للحفاظ على مصالحها ونفهم أن توجه هذه الاخلاق والمفاهيم كالوفاء وكالصدق ... توجيهها مشوها ، فيصبح الوفاء وفاء للطبقة والاخلاص اخلاصا للطبقة . بيد أن مثل هذا التشويه مفضوح .

نعم لا توجد أخلاق واقعية ثابتة ومطلقة ، الا أن هذا لا ينفي أن الانسان صنع أخلاقه نتيجة لبحثه عن الكمال في مجتمعه ، وهو يعدلها ويبدلها . وهو يصنعها وسيصنعها نتيجة للتحريض الذي يشعر به وهو يرى تدني الواقع . ان الانسان يسير على الارض ، لكنه لا ينظر الى قدميه ، بل ينظر الى ما يزيد رفع رأسه شموخا ، ولا يزيده شموخا الا مزيد من القيم المتجهة الى مزيد من الكمال .

ما هو اساس حرية الانسان ؟ وكيف يعدل الضرورة ؟ كيف ينتقل من وضع الى وضع ؟ القيم في جدلها مع الوجود أساس التجاوز ، والتجاوز ليس آليا ، كل تجاوز حرية ، والحرية اختيار بين مجموعة من القيم ، اختيار نحو الافضل . والشيوعية تمثل تجاوزا ، فهي فلسفة الحرية ، لانها تختار بين مجموع القيم قيم الكثرة ، فهي اختيار نحو الافضل . انها محاولة لتجاوز وضع سييء بالارتقاء فوق

الاستغلال ، فوق الالية ، فوق الحيوانية ، انها ارتقاء فوق قيم مجموعة من الاشخاص الى قيم مجموعة البشر بمعظمها .
خلاف هذا الفهم تنحدر « الدوغمائية » الى تبرير التاريخ كله ،
فما دامت الاوضاع الاقتصادية تصنع الاخلاق ، فكل جرائم التاريخ
مبررة ، ويجب علينا ان نؤمنها ، وان نعطيها افضل حكم ما دامت
تعبر عن واقع اقتصادي ضروري . واذا كان علينا ان ندين احداً ،
فلندين الاقتصاد ! بيد ان الادانة الصحيحة هي الموجهة ضد الانسان
الذي اساء .

يتابع أنجلز :

« .. ان اخلاقا انسانية فعلية تسمو على التضادات الطبقيّة
وتسمو على ذكرها لا يمكن أن تصبح ممكنة الا في مرحلة من المجتمع لم
تتغلب على التضادات الطبقيّة فحسب ، بل قد نسيتها ايضاً في
الحياة العملية » (١) .

اذن ستكون هناك اخلاق غير طبقيّة يوماً ما .
الخطأ ان هذه الاخلاق موجودة هذا اليوم ايضاً ، على الرغم من كل
الاطّاء وكل التشويّهات . كيف يتعامل الكادح مع الكادح ؟ كيف
يتلاحم المناضلون ويتعاونون سواء اكان العدو هو الرأسمالي
أم المستعمر ؟

نفهم ان الغاء الطبقات سيساعد على انشاء اخلاق افضل واعم .
نفهم ان الثورة ستنتهي الاخلاق الحالية ، وستطورها نحو الاسمى ،
بيد ان ما لا يمكن فهمه انكار قيمة الاخلاق الانسانية الحالية ، وما
لا يمكن فهمه انكار التطور الانساني كله . ما الاخلاق الحالية الان ؟
اليسنت نتيجة لكل ذاك التطور المبرر والذي يندفع خطوة فخطوة
نحو الامام ؟ ان ذاك الربط الذي يقترحه أنجلز ، ينسى كل التقدم ،
ويجعل الانسان في كل مرحلة يستعيد وضعه البدائي ، والا فان كل
وضع جديد هو محصلة لكل التقدم سواء اكان اقتصادياً أو فكرياً ،
وهو في واقع الامر كذلك ، يبقى ان نبرهن على ان المحصلة

(١) المرجع السابق ص ١١٥ .

الاقتصادية المستوعبة لكل التطور السابق تصنع المحصلة الفكرية المستوعبة لكل التطور السابق . وبذلك فان القضية ليست كون البنى التحتية تخلق البنى الفوقية ، بل هي هذه ، فمن يجرؤ على تقديم مثل هذا البرهان الذي لا يمكن تقديمه .

والذي يبدو أن أنجلز يعترض على دوهرنغ وأخلاقه وأسلوبه السيء في الكتابة . ان كلمات دوهرنغ عن سواه غير أخلاقية ، وأنجلز يعترض . لماذا ؟ انه يعترض لان كلمات دوهرنغ تتعارض مع أخلاق انسانية مفترضة في النقاش ، تتعارض مع آداب النقاش . اذن فهو يفترض وجود حدود مقبولة من الاخلاق البرجوازية تجاوزها دوهرنغ ، وهي وان كانت برجوازية تنفصل عن الانتاج الذي ولدها ليتقبلها بروليتاري وفي الواقع ان اعتراض أنجلز صحيح لان هذه الاخلاق ليست وليدة انتاج برجوازي ، بل هي نتيجة لتطور طويل في قيم الانسان ، والتي تنتقل من جيل الى جيل وتتعدل بجدها مع الواقع الى هذا الحد او ذاك ، باتجاه قيم اسمى واكمل .



الفلسفة تخطيط وتشريع ، ووضع للغايات ، وغاية الغايات هي الشيوعية في الفلسفة الماركسية .

والمفترض أن العالم يحلل الواقع ، وهنا تنتهي مهمته لتبدأ مهمة الفيلسوف بوضع البرنامج أو التشريع المناسب لذلك التحليل العلمي والمتجه نحو الغاية المثلى أي الشيوعية ، ولما كان الواقع متبدلاً زمنياً ومكانياً فإن البرنامج تبعاً لذلك يتبدل . بيد أن الغاية النهائية لكل البرامج واحدة ، ولذا ليس من الغريب أن تسترشد هذه البرامج ببعضها زمنياً ومكانياً ، كما أنه ليس من الغريب أن تتجه هذه البرامج نحو وحدة بصورة تلقائية وبصورة منظمة .

من هنا يصبح عمل الفلسفة محدداً تحديداً دقيقاً ، كتخطيط وكتقادة لصنع الثورة العمالية في أي بلد من البلدان وفق برامج مرحلية تقترحها . وهو ما نراه واقعاً فعلياً بالنسبة للأحزاب التي تتبنى الماركسية . ان هذه البرامج تكون موفقة وصحيحة وقادرة

على قيادة الجماهير عندما تستوعب ذاك الجدل بين الواقع أو النظرية العلمية عنه والغاية الانسانية الشاملة أو المثل الأعلى الشيوعي . وتكون هذه البرامج عاجزة اذا غفلت عن تحليل الواقع واذا تناست الهدف الاعلى ، واذا تراخى استيعاب هذا الجدل النامي بين الواقع والهدف . حقا ان النصر حليف للفعالية الانسانية، لكن الفعالية الواعية لغاياتها على ارض الواقع .

واذا كان العلم يحلل الواقع ، فان على الفلسفة ان تحلل الغاية سواء الغاية المرحلية أو الغاية النهائية ، بذلك يرسم أفق المسار الطويل عبر المستقبل .

وقد حدد ماركس مرات قليلة بعض جوانب هذا الاتفاق منذ الشباب وحتى النهاية . وقد مر معنا جانب من هذا التحديد عندما بحثنا في الانعتاق ويمكن أن نتابع الآن ذكر بعض الجوانب الأخرى . وبطبيعة الحال لن نتعرض للبرامج المرحلية التي تحدد أهدافا آتية ، بل سنتعرض للغاية النهائية .

ما الشيوعية ؟ كتب ماركس :

« ... الشيوعية ، الالفاء الايجابي للملكية الخاصة (التي هي ضياع الذات الانسانية ، وبالتالي التملك الفعلي للماهية الانسانية من قبل الانسان ومن أجل الانسان ؟ اذن رجوع الانسان رجوعا كاملا لذاته كإنسان اجتماعي ، أي انساني ، رجوعا واعيا تحقق مع الاحتفاظ بكل ثروة التطور السابق . هذه الشيوعية بوصفها طبيعية مكتملة = انسانية ، بوصفها انسانية مكتملة = طبيعية ، انها الحل الحقيقي للتناحر بين الانسان والطبيعة ، بين الانسان والانسان ، الحل الحقيقي للصراع بين الوجود والماهية ، بين التوضع وتأكيد الذات ، بين الحرية والضرورة ، بين الفرد والنوع . انها اللغز المحلول للتاريخ وهي تعرف نفسها على انها هذا الحل » (١)

« ان الفاء الملكية الخاصة هو اذن الانعتاق الكامل لكل الحواس

ولكل الصفات الانسانية ، ولكنه هو هذا الانعتاق بالضبط لان هذه الحواس وهذه الصفات قد صارت انسانية ، ذاتيا وموضوعيا على حد سواء ... » (١) .

« وعندما يصبح المجتمع الشيوعي في مرحلة عليا ، ويتواري نظام تجزئة العمل الذي اذل الافراد ، ويختفي معه التناقض بين العمل الفكري والعمل اليدوي ، عندما لا يظل العمل وسيلة للعيش ، ويضحى ، في حد ذاته ، حاجة الحياة الاولى ، عندما يتزايد تطور الافراد ، وتتضاعف قوى الانتاج ايضا ، وتتفجر جميع منابع الثروة التعاونية بغزارة ، حينئذ يمكن تجاوز أفق الحق البورجوازي الضيق نهائيا ويستطيع المجتمع أن يكتب على راياته « من كل حسب طاقاته ، ولكل حسب حاجاته » (٢) .

عبر هذه النصوص يمكن أن نستعيد القول السابق كله ، ويمكن أن نستعيد تاريخ الفلسفة كليا لنرى موقع الماركسية فيها .

ولنبدا بقضية العكس ذاتها ؟ فما هو موقف الماركسية بالضبط بالمقارنة مع القول الفلسفي ؟ ان ثنائيات الفلسفة التي كشفت وعمقت ابعادها في تاريخها كانت تبحث عن الحل الفكري ، وبذلك تنوعت الآراء لحل هذه المعضلات تارة او لحل هذه التناقضات مرة اخرى ، وكلما حسب فيلسوف انه وصل الى الحل الفكري النهائي ابان التاريخ عن عجز ما في حله ، وقد توج هيجل هذه الحلول بجذله ، وهو بطبيعة الحال جدل فكري ، وجاءت الماركسية ، لتقر بهذه الثنائيات أولا ، ولتوقف القضية على قدميها ، اذ ليس المطلوب أن نجد حلا منطقيا لهذه الثنائيات ، بل المطلوب أن نبحت فيها على أرض الواقع ، وان نحاول ازالة التناقض الحقيقي على هذه الارض . ان كل المحاولات الفلسفية السابقة تنسى أن هذه الثنائيات واقعية ، وان أي جواب فكري ما هو الا لعبة ذهنية لا تعني الكثير ، ما دام التناقض في صلب الوجود . وعلى

(١) المرجع السابق ص ٢١٩

(٢) نقد برنامج غونا : ص ٢٩ . ماركس :ت صلاح مزهر دمشق ١٩٧٤

ذلك فمهمة الفيلسوف ليست انشاء كتاب متناسق ، يلغي فيه التناقض بالجمال وبالكلمة بل مهمته ان يحدد كيف يمكن أن نلغي التناقض واقعيا .

وعلى سبيل المثال هناك التناقض بين الحرية والضرورة ، ولقد تحطمت كل المحاولات التي تحاول ردم هذه الحفرة ، فتارة يحتفظ بالتناقض بنوع من التلغيق ، وتارة تلغى الحرية ، وتارة تلغى الضرورة . أما الجواب الماركسي فيتضمن الاعتراف بهذا التناقض ولا يرفعه ما دام واقعيا ، وبالتالي فإن المهمة بعد هذا الاعتراف الضمني ، معرفة أسباب زوال الحرية حيناً ، ومعرفة أسباب نقص الحرية في الحين المكمل ، وبالتالي ما هي الوسائل التي تجعل هذه الحرية ممكنة ، وبالتالي كيف يمكن أن نزيد من امكانيات هذه الحرية ، وبالتالي كيف نزيل هذا التعارض على أرض الواقع . وكل هذا لا يكون الا بتلك الدراسة العلمية للواقع ، وبالتالي الا بوضع الاهداف الجذرية التي تجتز السبب الرئيسي وتحسمه .

لقد استبدل ماركس بجدل الافكار ، **جدل الواقع** ، جدل الانسان (عمله الهادف) مع الارض . وبذلك تتبدى ثورته الفلسفية التي تستعيد الطرح الفلسفي الاستعادة الكلية ، وهو ما يحدد موقع هذه الفلسفة من التاريخ كتتويج له . وبذلك يسقط ذلك الادعاء المجحف والذي يعتبر الماركسية مقبرة للفلسفة ، لاننا نمضي أبعد من هذا ، لنقول عن حق ، **ان الماركسية هي الفلسفة الوحيدة التي تضع مباحث الفلسفة على قدميها ، والفلسفة الوحيدة التي تصنع أفقا للتاريخ الانساني .**

ان جميع الفلسفات السابقة من دون أفق ، لانها تنظر الى الورا الى الازل . فقيمها ومعاييرها لا تنطلق نحو الامام ، بل تستلهم ما قرر في مسرحية الازل ، ولذا فكل مهماتها كانت تعقيل ما هو موجود وتبريره بحسب الغاية الكاملة السابقة ، وبالتالي جعل هذا الوجود كاملا مثل الغاية الالهية الموضوعة فيه . ان غاية الفلسفة ، كانت هي استيعاب الوجود على ما هو عليه وادراك غايته وبالتالي التوافق — عمليا — مع هذا الوجود مهما كانت الاوضاع . وهكذا فان هذه الفلسفات ، وان كانت تستلهم الازل ، فقد انتهت

الى تبرير الواقع والى اعتباره غاية الكمال كيف لا وفي هذا الواقع تجلت العناية الازلية والغايات الكاملة ؟ وبذلك ، فان هذه الفلسفات ركعت للواقع حيناً ، وتعلقت بأوهام الماضي السحيق حيناً آخر ، محاولة بالوهم استعادة لحظات من السعادة الفردية الواهية بالاتصال الوهمي بذاك الازل ، من هنا كانت هذه الفلسفات ، بتعلقها بالماضي ، وباقرارها للواقع ، كانت فلسفات من دون مستقبل ، ومن دون أفق . ومن هنا احتقارها للواقع ، أو رفضها البحث في الواقع ، ومن هنا كانت أنظمة فكرية مغلقة ، تتعلق بالكلمة وحدها ، ففيها السؤال والجواب ، وكيف لا يكون هذا والمعرفة تذكر للكلمات الاولى الازلية ، والوجود ظل لتلك الكلمات ، من أفلاطون الى هيجل ، مع اختلافات لا تمس هذا الجوهر الاساسي . ولكن من دون جدوى فالاشكالات المطروحة لا حل لها .

مقابل كل هذا تقف الماركسية لتستعيد كل اللحظات الفلسفية المنزوية في التاريخ ، ولتبلورها حول محور أساسي ، بل ولتستعيد السؤال الفلسفي بوضعه الصحيح ، معدلة مضمونه وشكله ، وموضوع البحث فيه وطريقة البحث هذه ، لا لتجد الجواب المطلق ، كما هي شيمة كل فيلسوف سابق ، مغلق ومن دون أفق ، بل لتتلمس المشكلة أولاً ، ولتتشق طريقها ، وبالتالي ، لتصنع أفق الجواب ، بمعنى أن تضع الجواب كتاريخ انساني على أرض الواقع ، فالجواب أجوبة ، وهي تنمو مع التاريخ في التاريخ عبر التاريخ ، ولا جواب مطلق . وهذه هي الدلالة الاولى للافق الفلسفي . أما دلالاته الثانية ، والتي نشأتها من هنا ، فهي كون الماركسية لا تحجز واسعا ، ولا تغلق نفسها على دوغمائية نهائية . اذ ما دام الواقع هو الاساس وليست الكلمة ، وما دام هذا الواقع وبالتالي الانسان وبالتالي الفلسفة متبدل ، فالافق منفتح للقول ، منفتح للاهداف ، منفتح للفلسفة المرة تلو المرة ، اذ ليست غايتها تعقيل الوجود ولا تبريره ، بل غايتها تبديل هذا الوجود ، ومع كل تبديل جديد يتضح أفق جديد ، وينشأ جدل جديد وتتحقق أهداف جديدة .

الماركسية لا تتعلق بمسرحية الازل ، وفي الان نفسه لا تغرق نفسها في رمال الارض ، وانما تتعلق بأمر واحد هو الانسان وحرية،

وتحلل أمرا واحدا هو جدل هذا الانسان مع الوجود ، ولذا كانت الفلسفة الوحيدة التي تضع أفقا للفلسفة ، أي تضع أفقا للإنسانية ، على حين كانت الإنسانية في كل الفلسفات السابقة غارقة في رمال الأرض وإن ادعت التطلع إلى العلاء ، وعلى حين كانت الإنسانية في كل الفلسفات السابقة مغلقة ، ضائعة ، تتطلع إلى وراء ، إلى الوهم . وبذلك نستطيع أن ننعت الماركسية بأنها الفلسفة الإنسانية الوحيدة ، وإن كره الغارقون في الرمال .

إنها فلسفة الإنسان ، لأنها لا تبحث فيه عبر الكلمة الأزلية ولا تبحث فيه عبر الضرورة الوجودية ، وإنما تبحث فيه عبر جدله مع الوجود ، مستعيدة أطروحة العمل الغائي ، المسبوق بالانكار . وإنما تبحث فيه لتحقيق غاية واحدة لا غير هي تحرير عمله ، تحرير فكره ، تحريره من المذلة والهوان ، تحريره من الضياع ، ليستعيد إنسانيته ، وليس عبثا أن يجعل ماركس الماركسية أو الشيوعية كلمة مرادفة للإنسانية ، ذلك أنه بالشيوعية عودة إلى طبيعة الإنسان الغائي المختلف عن الآلة والحيوان ، ولكن هذه العودة ليست عودة إلى البداية ، بل عودة إلى طبيعة تتكامل شيئا فشيئا إلى أن تكون كاملة ، والطبيعة المكتملة هي الإنسانية الحقة ، هي الإنسانية الحرة التي تحررت من كل أشكال الفلسفة وثنائيتها على أرض الواقع ، لا بالكلمة ولا بالوهم ، لا بالماضي ، بل في المستقبل مع بناء الشيوعية ، على أرض الواقع . والماركسية هي الفلسفة الوحيدة التي لها أفق ، لأن غايتها الأساسية هي السعي وراء تحقيق هذه الإنسانية المكتملة لا كما كانت في الماضي ولا كما هي الآن ، بل في المستقبل .

خاتمة القسم الاول

الواضح في رأس المال من البداية الى النهاية هو قضية العمل . وبذلك فهو علم العمل . العمل كصانع لرأس المال وكأساس للانتاج . وبذلك فهو بديل المادية التاريخية .

حتى الابحاث النظرية البحتة مثل أنواع القيمة ، صورة القيمة ومادتها .. كتبت لتستخدم فيما تبع لشرح العمل وقد أصبح سلعة . اذن ليست القضية شرود جملة يستشهد بها ، بل هي ما هو المحور وما هو الاساس ؟ ولا اساس اخر في رأس المال غير العمل والعمل فقط .

وعندما نقول العمل ، نضع في الاعتبار سبق الافكار له ولحوقها عليه ، فلا عمل من دون أهداف وقيم . واذا كانت المثالية تضع النظام الفكري في البداية ، فان الماركسية تختلف عنها بكونها تؤكد أن لا أهمية للأفكار الا عندما تتحول الى عمل . اذ أنه اذا كان الانسان لا يعمل دون أفكار فالأفكار مجرد كلمات من دون عمل .

وغلى ذلك فان ما يلحق علم العمل هو فلسفة العمل والتي توضح الاهداف والقيم التي تحتاجها الجماهير لتصنع ثورتها .

على هذا النحو ناقشت الماركسية الدوغمائية بدءا من خلطها بين الفلسفة والعلم ، وبينت خضوعها لتحليلات أرسطو عن المشكلة الانطولوجية . ونقدت كونها تريد أن تقول الوجود فلسفيا ، لان الوجود يقال علميا فحسب . وكجزء من البحث كون الانسان يدرس

علميا أيضا ، بما هو من الوجود ، نشأ عن تطور المادة ، رادا تفرد
الى كونه الحامل الوحيد للقيم والغايات . من هنا نقدي لذلك
التفرد المزيف الذي تبخته المثالية عند طرحها قضية « الروح » .
والماركسية عند قلبها للمثالية احتفظت بصيغها المزيفة ، وان تحدثت
عن أولوية المادة على الروح . ولا يوجد شيء اسمه الروح انما
يوجد شيء اسمه الدماغ وظيفته التفكير لا الفكر ولا الروح .

من كل هذا نجد أن العلم وحده يدرس الوجود ويقرر لم هذا
الوجود بما فيه الانسان . والفلسفة لا تقول أية كلمة تحوي معنى .
العلم وحده يبحث ويجيب ، بما في ذلك بحثه في الانسان كعارف
(نظرية المعرفة) وبما في ذلك بحثه في الانسان كعامل (الاقتصاد
والتاريخ والمجتمع) . وهو ما صنع بعضه ماركس في رأس المال .

أما الفلسفة ، فلسفة العمل ، فهي مشروع لم ينجز حتى الان ،
لان « الدوغمائية » عودة الى الورا لتتساقط الكتابات
الماركسية حول محور مادي خاطيء ، مع تجاهل للمحور الجديد
الذي يجب أن تتطور نحوه ، أعني : العمل .

وفي سبيل مثل هذا المشروع نقدت « الماركسية الدوغمائية »
بالاستناد الى اطروحات رأس المال والاطروحات المتوافقة معه
والتي كتبت فلسفيا قبله . جاعلا القضية دائرة حول سؤال جوهرى:
أيهما أصح بالنسبة لرأس المال جعل المادية هي العامل الحاسم في
التطور وفي الجدل ، وهو ما تتبناه الدوغمائية حاليا
أم العمل هو العامل الحاسم ؟ مستعيدا جدل الانسان مع
المادة ، ومستعيدا دور الحرية في الضرورة ، وهو ما لم تستطع
« الدوغمائية » الحالية تجاوزه بعودتها الى هيغل .

ان هذا ليس أكثر من محاولة لفهم الماركسية الصحيحة ، في
سبيل انشاء فلسفة العمل .

القسم الثاني

نحو فهم اللينينية

« ان فكرة تحول المثل الاعلى الى واقع هي فكرة عميقة ، انها هامة جدا للتاريخ وكذلك في الحياة الشخصية للانسان ، اذ من الواضح أن فيها كثيرا من الحقيقة ضد المادية الشائعة » (١) .

لينين

(١) راجع : دفاتر عن الديالكتيك : لينين ت: الياس مرقص . دار الحقيقة بيروت ط١ ١٩٧١ ص ١٥٠ . لكن اثرنا ترجمة أخرى أكثر دلالة وقد وردت في « فكر لينين » : لوفيفر ت: د كمال غالي وايدب الملجمي ص ٢٤٦ دمشق — وزارة الثقافة ١٩٦٩ .

ما هي أسس اللينينية ؟ انها كما يلي :

١ — الماركسية مرشد عمل .

٢ — الماركسية تحليل ملموس للواقع الملموس بكل ما يشملهم من عناصر في وضعه التاريخي ، وفي تبدلاته المستمرة ، لانشاء علم الاجتماع الماركسي .

٣ — الماركسية كهدف عام ، وكمثل أعلى ، هي الشيوعية .

٤ — ان البرنامج أو الهدف المرحلي يشتق من الهدف العام وبما يتناسب مع الواقع أو النظرية العلمية عنه وبذلك ننشئ الفلسفة الماركسية كتشريع وكتخطيط .

٥ — العمل الغائي ، وبه تتكامل الاسس ، عبر التنظيم الثوري ، وعبر الفعالية اليومية المتوجة بالثورة لالغاء عبودية الانسان ، وبالتالي العمل الغائي لتنظيم المجتمع الجديد باتجاه الهدف العام .

فلننظر في التفاصيل لنرى مدى تطابق هذه العناصر مع افكار لينين ، ولنرى مدى صدقها .

لقد ميزت في القسم الاول مرحلة رأس المال التي تؤسس علم العمل ، وهذه المرحلة ليست زمنية ، ولذا فالمقصود بها اتجاه أو خط ، نجد مقدماته في بعض كتابات ماركس وأنجلز ، كما نجد كماله في كتابات لينين . نعم لقد طرحت القضية تجاه تيار آخر متسائلا : أنفهم الماركسية بحسب اخر انتاج ماركس أم بحسب انتاجه قبل ذلك ؟ وقد كان الجواب المنطقي : يجب فهم الماركسية بحسب رأس المال . ولسنا بحاجة الى مثل هذا الطرح مع لينين . بيد أن القضية هنا تأخذ شكلا جديدا ، اذ يمكن أن نقسم انتاج لينين الى قسمين ، القسم الاول وهو كتابات نظرية ، يستعيد فيها الماركسية كما هي ، والقسم الثاني وهو ما يمكن أن نحدده بالكتابات العملية . ومنذ البدء نقول

أن كتابات لينين النظرية تعاكس الى حد بعيد خط رأس المال ، والخط الذي وضعناه كعلم للعمل وفلسفة للعمل . لكن هذه الكتابات النظرية قليلة وهي لا تعتبر اسهاما أساسيا من قبل لينين وإنما اسهامه الاساسي يتبدى في القسم الثاني ، ونعني به المعالجات النظرية للمواقف العملية ، الواقعية ، المحسوسة ، والتي تقتضي دراسة علمية ، مثلما تقتضي تحديدا للغايات المتوافقة معها . من هنا نجد أن محورة اللينينية إنما يجب أن يكون بحسب هذه المواقف العملية ، عندها يستبين أن لينين إنما يتابع خط رأس المال وينميه موضحا علم العمل وفي الآن نفسه موضحا فلسفة العمل الغائي في جزء كبير منها . ومما يقلل من شأن النصوص التي يذكرها كبحت نظري بحت ، والتي يعتبر الانتاج فيها هو الاساس .

نقول هذا محاولة للبحث عن المحور الجوهرى في الماركسية واللينينية ، بدل الاكتفاء بهذا الاستشهاد ، أو ذاك لتأييد وجهة نظر ما ، اذ ما أسهل هذا العمل المتجاهل لوجهة نظر معاكسة . لن نغمض العينين كي لا نرى ما لا يتوافق مع تحليلنا ، وإنما نستعيد الموضوع بجذريته : هناك تياران فأيهما الجوهرى والاساسى عند لينين ؟

١ — الماركسية مرشد عمل :

الماركسية ليست قانون ايمان بل مرشد عمل . كتب لينين :

« كان أنجلز يقول في معرض الحديث عن نفسه وعن صديقه الشهير أن مذهبهما ليس بمذهب جامد ، إنما هو مرشد للعمل . ان هذه الصيغة الكلاسيكية تبين بقوة رائعة وبصورة أخاذة هذا المظهر من الماركسية الذي يغيب عن بالنا ، نجعل من الماركسية شيئا وحيد الطرف ، عديم الشكل ، شيئا جامدا لا حياة فيه ونفرغ الماركسية من روحها الحية ، وننسف أسسها النظرية الجوهرية — ونعني بها الديالكتيك — أي مذهب التطور التاريخي المتعدد الاشكال والحافل بالتناقضات — ونضعف صلتها بقضايا العصر

العملية والدقيقة ، التي من شأنها أن تتغير لدى كل منعطف جديد في التاريخ . » (١)
وكتب أيضا :

« ان مذهبنا ليس عقيدة جامدة بل مرشد للعمل ، هكذا قل دائما ماركس وانجلز ، ساخرين على حق من الصيغ المحفوظة غيبا والمرددة كما هي ، القادرة في أحسن الاحوال ، على تبين أهداف عامة على وجه التقريب ، يعدلها بالضرورة الطابع الملموس الاقتصادي والسياسي لكل طور من أطوار المجري التاريخي » (٢) .
ويذكر كلمات غوته :

« ان النظرية رمادية اللون ، يا صديقي ، ولكن شجرة الحياة خضراء الى الابد » (٣) .
ويكرر الكلمات ذاتها الماركسية مرشد عمل ، لا عقيدة جامدة في المؤتمر الاول لسوفييات نواب العمال والجنود (٤) .
ويكرر أيضا :

« ان نظريتنا ليست عقيدة جامدة ، بل مرشد للعمل هكذا قال ماركس وانجلز ، ان أعظم غلطة وأعظم جريمة ارتكبتها الماركسيون « من الماركة المسجلة » أمثال كارل كاوتسكي وأوتوبارد ومن على شاكلتهم ، هو أن هؤلاء لم يفهموا هذا الامر ولم يستطيعوا تطبيقية في اللحظات الفاصلة من ثورة البروليتاريا » (٥) .
وكتب أيضا :

« وبالضبط لان الماركسية ليست عقيدة جامدة ، ميتة ، مذهباً

(١) ماركس - انجلز - الماركسية : لينين ص ٢٣٦ دار التقدم موسكو . كتب سنة ١٩١٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٤٦ رسائل حول التاكتيك . الرسالة الاولى ١٩١٧

(٣) المرجع السابق : ص ٤٥٠ رسائل حول التاكتيك . الرسالة الاولى ١٩١٧

(٤) المختارات : مجلد ٢ الجزء ١ ص ٢١٦ . (١٩١٧) دار التقدم بموسكو . مطابع دار المعارف بمصر عام ١٩٧١ .

(٥) المختارات : مجلد ٣ الجزء ١ ص ٥٢٤ . « مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية » ١٩٢٠ .

منتهيا ، جاهزا ثابتا لا يتغير ، بل مرشد حي للعمل ، لهذا بالضبط كان لا بد لها من أن تعكس التغير الفريد السرعة في ظروف الحياة الاجتماعية . فقد أدى هذا التغير الى تفسخ عميق ، الى بلبله ، الى ترددات متنوعة ، وبكلمة ، الى أزمة داخلية خطيرة في الماركسية . ولذا توضع من جديد في جدول الاعمال مهمة القيام بعمل حازم ضد هذا التفسخ ، ومهمة القيام بنضال شديد عنيد دفاعا عن أسس الماركسية ... » (١) .

وكتب أيضا :

« .. فلا يمكن أن يقوم حزب اشتراكي صلب اذا لم تكن ثمة نظرية ثورية توحد جميع الاشتراكيين ويستمدون منها جميع معتقداتهم ويطبقونها في أساليب نضالهم وطرائق نشاطهم ، واذا ما دافعنا عن هذه النظرية ، التي نعتبرها صحيحة في أعماق اعتقادنا ، دون التهجعات الباطلة ودون محاولات تشويهها فان هذا لا يعني البتة اننا أعداء كل انتقاد . فنحن لا نعتبر أبدا نظرية ماركس شيئا كاملا لا يجوز المساس به ، بل اننا مقتنعون ، على العكس ، بأنها لم تفعل غير ان وضعت حجر الزاوية لهذا العلم الذي يترتب على الاشتراكيين أن يدفعوه الى الأبعد في جميع الاتجاهات ، اذا شأؤوا ألا يتأخروا عن موكب الحياة . ونحن نعتقد انه من الضروري بخاصة أن يدرس الاشتراكيون الروس ويطوروا نظرية ماركس بصورة مستقلة لان هذه النظرية لا تعطي سوى موضوعات توجيهية عامة تطبق — مثلا — في بريطانيا على غير ما تطبق في فرنسا ، وفي فرنسا على غير ما تطبق في ألمانيا ، وفي ألمانيا على غير ما تطبق في روسيا » (٢) .

وهناك عشرات النصوص الأخرى التي تؤكد كون الماركسية مرشد عمل ، والتي تهاجم وتنفذ بعنف الجمود والترديد الأبتري للاستشهادات والترديد البيغائي لهذه الجملة أو تلك ، والقولبة — والكلمة اللينين — للقواعد بصورة ميكانيكية (٣) .

(١) ماركس — أنجلز — الماركسية : ص ٢٤١ (سنة ١٩١٠)

(٢) المرجع السابق ص ١٢٩ برنامجنا (سنة ١٨٩٩)

(٣) راجع المختارات مجلد ٣ الجزء ١ ص ٥٤٨

كثيرا ما نقرا ونسمع ان الماركسية مرشد عمل ، ولكن على سبيل القول لا على سبيل الفعل والتطبيق . اذ ليس المهم ان نردد تلقائيا « مرشد عمل » ، والا كنا في الوضع المناقض لهذا المدلول ، وانما المهم ان نفهم وأن نعمل على أساس ان الماركسية ليست قوانين ايمان ، ولا صيغ علمية ثابتة ، كاملة ، ليست مذهبا دوغمائيا ، لا يقبل الانماء ولا التطور ولا التبديل ولا النقاش ، وهو ما نلاحظه سائدا امامنا .

الماركسية مرشد للعمل يعني نفيا للجمود ، يعني نفيا للمذهبية وللوثوقية ، يعني نفيا للقانون المطلق الصديق .

ومنطلق هذا الأساس ، أساس هذا الأساس — كما قال لينين — هو التطور والتبدل ، أساسه الجدل — بمفهومه الواسع الذي اعطاه له لينين — فبما ان الواقع متبدل ، فالنظرية عنه متبدلة ، والهدف الموضوع له متبدل أيضا .

معنى ذلك ان عليك ايها الماركسي الذي آمنت بالشيوعية هدفا ان تكون مثل ماركس ومثل لينين . هكذا حلل ماركس واقعه ، فأدرك تاريخيته وأدرك كل عناصره ، وأدرك تبدلاته ، وكشف زيف الادعاءات والنظريات و . . . و ، فافعل مثله ، حلل واقعك ، واستخرج نظرية علمية عنه ، وضع البرنامج المناسب كي تسير نحو الاشتراكية .

عدا ذلك — كما ذكر لينين — يحدث التبلبل والتفسخ . لكن حفظة القوانين قلبوا الآية ، فعدم القول بالقوانين يؤدي الى الفوضى ! ولذا حفظوا الصيغ الجاهزة ، ليسحبوها بكل يسر عند أول نقاش . اما الواقع فهم غريبون عنه وهو غريب عنهم .

معنى مرشد عمل ان لا نستشهد بفلان أو بفلان ، بل ان نستشهد بالظواهر الواقعية الملموسة في واقعنا الخاص . وعندما يختلف الواقع مع الصيغة القانونية ، يكون الالتزام بالواقع فحسب ، لان تلك الصيغة وضعت لظرف مكاني وزماني محددين ، ولم تصبح قانونا مطلقا .

وهو ما سوف يتضح في الاسس الاخرى ، لترابط وتشابك هذه الاسس بشكل متكامل .

٢ - تحليل القضايا الملموسة بطريقة ملموسة :

هذا هو الأساس الثاني في اللينينية ، وبه يتأسس علم الثورة ، أو علم الاجتماع السياسي الماركسي . فكيف يقوم العلم ؟ وما هي شروط قيام العلم ، وكيف يتناول العالم موضوعه ؟ وعلى وجه الخصوص كيف يتناول عالم الاجتماع هذه الظاهرة أو تلك ؟ منذ القديم ، يطالب (بضم الياء) العالم بالموضوعية وبالنزاهة وهو يعالج قضية من القضايا ، وهذا يعني نبذ الآراء المسبقة ، أو وضعها موضع الفرض لا موضع الحقيقة المطلقة ، إذ من المحال أن يعالج العالم قضية ما وهو خالي الوفاض ، ولكن شتان بين اعتباره ما يحمل من آراء على أنها صادقة ولا مجال للشك فيها واعتباره ما يحمل من آراء موضع بحث ، كما أن هذا يعني تجرده عن مصالحه ورغباته الشخصية ليستطيع صياغة حكم موضوعي منزه عن الأغراض .

ومنذ القديم نجد الصعوبة الفائقة في الدراسات الاجتماعية التي تسعى للوصول إلى يقين الدراسات الطبيعية وشمولها . ومصدر هذه الصعوبة ليس مجرد تعقد الحياة الاجتماعية والنفسية فحسب ، بل هو بالدرجة الأولى ، هذا الاختلاف البين بين أنواع الحياة الاجتماعية زمنًا ومكانًا . أن تفاوت التطور بين المجتمعات واختلاف نوعيته فيما بينها ، بل تفاوت التطور واختلافه في المجتمع الواحد يؤدي حتمًا إلى انتفاء وجود قوانين موضوعية مطلقة .

وبالنسبة للماركسية تقهرت في قوانين حتمية ، اكتسبت بسببها اسم الاشتراكية العلمية . فهي علم لأنها كشفت هذه القوانين العلمية . وبذلك ما أسهل تطبيق تلك القوانين هنا وهناك ، ولا بأس بالقول ، أنه يجب تطبيقها بمرونة لوجود بعض الاختلافات أو لوجود بعض الخصائص المميزة .

فهل هذه هي الماركسية الحقيقية ؟ وما هو موقف لينين من كل هذا ؟ وكيف يفهم مضمون العلم ونهجه ؟

إن موقف لينين مكرر عشرات المرات في كتبه ، وهو الموقف

المضاد لهذه الماركسية المقولبة تماما . وما نزاعه مع خصومه الا تأكيد على وقوفه بجانب العلم ضد هذا التطبيق الخاطئ للمجرد على المحسوس ، لقصر المحسوس على الانطواء تحت المجرد ، فالمجرد يستقى من المحسوس ، ولا يستقى المحسوس من المجرد .

موقف لينين محدد بتحليل الواقع بشكل محسوس ، بدراسة جميع العلاقات من جميع النواحي ، بالبحث في الخاص ، ورؤية حركته ونموه لاكتشاف قوانينه ولتعديل هذه القوانين بحسب ذاك التطور .

ولكن ماذا يبقى من الماركسية كعلم اذا فهمنا الامر على هذا النحو ؟ يبقى انها مرشد عمل ، مرشد يطالب بكل صدق أن نبحث في الواقع ، مقابل المثالية التي تنشئ المذاهب المجردة في غرفة مغلقة . يبقى انها مرشد يطالبنا بأن نبحث في كل العلاقات الموجودة ، مقابل المثالية التي تغمض العيون عن بعض العلاقات لتزييف الافكار ، ولتستخرج مذاهب تهدف الى طحن واستعباد أكثرية البشر . يبقى انها مرشد تطالبنا بعد دراسة الواقع دراسة موضوعية ومنزهة ، أن نضع الهدف المناسب للواقع وللمثل الاعلى ، والذي هو تحقيق العدل والمساواة .

بذلك تنتقل من الماركسية الدوغمائية ، من الماركسية « كقانون ايمان » الى ماركسية نضالية ، مطالب معها كل ماركسي بالعمل وبالبحث بدل حفظ الشعارات وترديدها .

كتب لينين عن الموضوعة الديالكتيكية الاساسية ما يلي : « يجب تحليل القضايا الملموسة بطريقة ملموسة لا أكثر » (١) .

وكتب ايضا : « ان المبدأ الاساسي للديالكتيك هو انه ليس ثمة حقيقة مجردة فالحقيقة ملموسة أبدا » (٢) .

(١) المختارات مجلد ١ جزء ١ ص ٥٥٨ خطوة الى الامام .. (سنة ١٩٠٤)

(٢) المرجع السابق ١/١ ص ٦٠١ خطوة الى الامام

ونقد بوخارين لانه لم يراع هذا المبدأ الاساسي فقال : « ولكن بوخارين قد أخطأ ، لانه لم يمعن الفكر بالخصائص الملموسة للوضع الراهن في روسيا ، وهو وضع استثنائي ، على وجه التدقيق . . » (١) ونقد بليخانوف لانه يسعى الى تطبيق المبدأ العام على الواقع ، فقال : « . . أما الطريقة المعكوسة في المحاكمة ، التي غالبا ما نراها في الجناح اليميني من الاشتراكية — الديمقراطية وعلى رأسه بليخانوف — أي الميل الى السعي وراء الجواب على المسائل الملموسة في مجرد التطوير المنطقي لحقيقة عامة — فانه تمس طابع ثورتناسا الاساسي — فانها لا تؤدي الا الى ابتذال الماركسية وليست سوى صورة مشوهة ، صورة كاريكاتورية للمادية الديالكتيكية » (٢) .

لماذا ؟ كتب :

« وانها لحقيقة فلسفية وتاريخية لا جدال فيها ، اذا ما القينا نظرة شاملة على عهد الثورة الاشتراكية بمجموعه ، ولكن كل حقيقة مجردة تغدو جملة فارغة ! اذا طبقت على كل وضع ملموس ، أيا كان . . » (٣)

وكتب أيضا :

« ان الاستعاضة عن الملموس بالمجرد انما هي خطأ من الاخطاء الرئيسية ، الاخطاء الاكثر خطرا على الثورة » (٤) .

كيف ؟

لان كل شيء نسبي ومتغير . قال : « ينبغي طرح المهمات السياسية الملموسة في وضع ملموس فكل شيء نسبي يمضي ، كل شيء يتغير . . » (٥) وقال : « ان الماركسية تقضي بأن تؤخذ الاحوال

(١) المختارات ٢/٣ ص ٢٣٩ عن الضريبة العينية (سنة ١٩٢١)

(٢) مجموعة ماركس — انجلز — الماركسية ص ٢٧٩ تطور الرأسمالية في روسيا (سنة ١٩٠٧)

(٣) المختارات ٢/٢ ص ١٤٥ درس قاس ولكنه ضروري ١٩١٨

(٤) المختارات ١/٢ ص ٢٦٦ حول الشعارات (سنة ١٩١٧)

(٥) المختارات ٢/١ ص ٨٩ خطنا الاشتراكية الديمقراطية (١٩٠٥)

الموضوعية وتبديلها بعين الاعتبار ، ويجب طرح المسألة بصورة ملموسة ، تبعا لهذه الأحوال ... » (١) .

ولانه يجب وضع القضية الخاصة في نطاقها التاريخي ، قال : « حين يعتمد المرء الى تحليل قضية اجتماعية أيا كانت ، توجب عليه النظرية الماركسية اطلاقا أن يضع تلك القضية في نطاق تاريخي معين كما تشترط عليه أيضا اذا كان الموضوع يدور حول بلد بمفرده (مثلا حول البرنامج القومي لهذا البلد) أن يأخذ بعين الاعتبار الخصائص الملموسة التي تميز هذا البلد عن سواه ، في حدود حقبة تاريخية واحدة معينة » . (٢) وقال : « أما الذين يجب اجبارهم فهم بعض المثقفين ، يجب اجبارهم على النظر الى مهامهم نظرة أوسع ، اجبارهم على الاقلاع عن استعمال الصيغ الجامدة المكررة عند درس المسائل الملموسة ، اجبارهم على حسابان الحساب للوضع التاريخي الذي يعتقد ويعدل أهدافنا » (٣)

ولانه يجب حساب العلاقات من جميع النواحي ، والاخذ بالاعتبار كون هذه العلاقات تتطور ، كتب لينين : « ان الجوهر النظري لذلك الخطأ الذي يقترفه هنا الرفيق بوخارين يتقوم في كونه يستعيز عن العلاقة الديالكتيكية بين السياسة والاقتصاد (هذه العلاقة التي تعلمنا اياها الماركسية) بالاختيارية . « هذا » و « ذاك » من جهة ، ومن جهة أخرى « هذا هو موقف بوخارين النظري . وهذا هو الاختيارية بالذات . أما الديالكتيك فانه يتطلب حسابان العلاقات من جميع النواحي خلال تطورها الملموس ، لا انتزاع قطعة هنا وقطعة هناك ... » (٤) ويكرر : « أما المنطق الديالكتيكي فانه يتطلب منا أن نسير الى ابعد . فلكي نعرف الشيء فعلا ، يجب أن نأخذ وندرس جميع جوانبه ، جميع علاقاته « واستدلالاته » ونحن لن نتوصل أبدا الى هذا بصورة كلية ، ولكن مطلب شمول جميع الجوانب يقينا من الوقوع في الاخطاء وفي الجمود . هذا أولا .

-
- (١) المختارات ٢/٢ ص ١١١ تنبيه آخر (سنة ١٩١٨) .
 - (٢) المختارات ٢/١ ص ٢٠١ حق الامم في تقرير مصيرها (سنة ١٩١٤)
 - (٣) المختارات ١/١ ص ٤٠٠ خطوة الى الامام ... (سنة ١٩٠٤)
 - (٤) المختارات ٢/٣ ص ١٦٢ .. مرة أخرى عن النقابات (سنة ١٩٢١)

ثانيا ، يتطلب المنطق الديالكتيكي أخذ الشيء في تطوره ، في «حركته الذاتية» (كما يقول هيجل أحيانا) في تغيره . ان هذا غير مفهوم من الوهلة الاولى فيما يخص الكأس ولكن الكأس أيضا لا تبقى دون تغير ، بل يتغير على الاخص القصد من الكأس ، استعمالها ، صلتها مع العالم المحيط .

ويضيف: «ثالثا ينبغي أن تدخل الممارسة الانسانية كلها في تعريف الشيء تعريفا كليا سواء أمن حيث انها مقياس الحقيقية أم من حيث أنها معرف عملي لصلة الشيء مع ما يحتاجه الانسان . رابعا ، يعلم المنطق الديالكتيكي انه « لا وجود للحقيقة المجردة ، فالحقيقة دائما ملموسة ... » (١) .



ما هو المطلوب من العالم ؟ تحليل الواقع الملموس ، بطريقة ملموسة ، لا تطبيق قانون عام على حالة خاصة . المطلوب تحليل الوقائع ، كل الوقائع ، وكل الظروف ، في اطارها التاريخي ، أي ملاحظة نسبتها ، وبالتالي تتبع منحى تطورها .

ان تحليل الواقع الملموس ، هو نفسه المنطق الجدلي ، هذا المنطق الذي يفترض التطور المحسوس ، يفترض دراسة الجدول الواقعي ، لا العقلي . الجدول الوجودي ، المادي . جدل الشيء وحركته الذاتية ، جدل الازدواج ، وعلى وجه الخصوص جدل العام والخاص (٢) وهو ما يهمنها هنا أولا ، وهو ما تستثيره قضية تحليل الواقع لانشاء العلم ، فلنضرب بعض الامثلة التي ذكرها لينين ، للابانة عن هذه العلاقة الجدلية الهامة ، والتي تنسف في عملية القولبة الدوغمائية .

(١) المختارات ٢/٣ ص ١٦٦ مرة أخرى عن النقابات

(٢) راجع ماركس - أنجلز - الماركسية ص ٢٨٦ حول الديالكتيك (سنة ١٩١٥)

كتب لينين :

« وهكذا يمكن (ويجب) أن نستشف في كل جملة ، كما نستشف في نخروب (خلية) أجنة جميع عناصر الديالكتيك ، لكي نبين أن الديالكتيك ، بوجه عام ، هو من طبيعة كل معرفة انسانية . والحال ، أن العلوم الطبيعية تبين لنا (وهذه المرة أيضا ، ينبغي تقديم الدليل على ذلك بأي مثال بسيط جدا) الطبيعة الموضوعية بنفس صفاتها ، وتحول الخاص الى عام ، والطارئ الى ضروري ، والدرجات الانتقالية ، والتنوعات ، والصلة المتبادلة بين الاضداد . أن الديالكتيك هو حقا نظرية المعرفة (عند هيجل) وعند الماركسية : أن هذا الجانب من الأشياء (وهو ليس « جانبا » إنما هو جوهر الأشياء) قد أهمله بليخانوف ، فضلا عن الماركسيين الآخرين » (١) .

وكتب ضد كاوتسكي :

« أن كاوتسكي يتخلص ، كما هو شأنه ، حسب الصيغة الشهيرة : من جهة لا بد من الاعتراف ، ومن جهة أخرى يجب الاعتراف . أنه يضع جانبا الى جنب مختلف الحلول دون أن يفكر بالمسألة الواقعية الوحيدة ، الماركسية الوحيدة ، مسألة معرفة مراحل الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية في هذه الأوضاع الخاصة أو تلك » (٢) .

وكتب عن الانتخاب :

« .. واليوم يجدر القول أن قضية تقييد حق الانتخاب قضية خاصة بهذه الأمة أو تلك ، قضية عامة للديكتاتورية . فلدراسة قضية تقييد الحق الانتخابي ينبغي بحث الظروف الخاصة بالثورة الروسية ، المجرى الخاص لتطورها .. » (٣)

(١) المرجع السابق ص ٢٩٠

(٢) المختارات ١/٣ ص ١٧٤ الثورة البروليتارية والمرشد كاوتسكي ١٩١٨

(٣) المختارات ١/٣ ص ١١٥ الثورة البروليتارية والمرشد كاوتسكي

وكتب عن العنف :

« .. ولذا ، فان من يتحدث عن « العنف » بوجه عام ، دون أن يرى بوضوح الى الاحوال والشروط التي تميز بين العنف الرجعي والعنف الثوري ، انها يعطي الدليل على انه تافه ضيق الافق يتخلل عن الثورة .. » (١)

وكتب أيضا :

« ايها الرفاق ، طبيعي تماما أن يترتب علينا ، في مجرى تطور الثورة البروليتارية أن نضع في المنزلة الاولى ، **طورا هذه القضية ، وطورا تلك** ، من بين أهم قضايا الحياة الاجتماعية وأكثرها تعقيدا .. وإذا كان يترتب علينا الآن أن نتوقف عند مسألة النشاط في الريف وأن ننظر **نظرة خاصة** منفردة الى وضع جماهير الفلاحين المتوسطين ، فلا يمكن أن يكون في الامر أي طابع غريب أو غير طبيعي من حيث تطور الثورة البروليتارية بوجه عام » (٢) .

وكتب أيضا :

« .. ينبغي لكم أن تستندوا في الميدانين النظري والعملي على التعاليم الشيوعية العامة ، وأن **تأخذوا بعين الاعتبار الظروف الخاصة غير الموجودة في البلدان الأوروبية** كي يصبح بإمكانكم تطبيق هذه التعاليم في الميدانين النظري والعملي في ظروف يؤلف فيها الفلاحون الجمهور الرئيسي وتطرح فيها مهمة النضال لا ضد رأس المال ، بل ضد بقايا القرون الوسطى .. » (٣) .

وكتب أيضا عن النضال :

« القضية كلها الآن في أن على الشيوعيين في كل بلاد أن يأخذوا

(١) المختارات ١/٣ ص ١٥٠ الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي

(٢) المختارات ١/٣ ص ٢٥٥ المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي ١٩١٩

(٣) المختارات ١/٣ ص ٤١٠ المؤتمر الثاني للمنظمات الشيوعية لشعوب الشرق

بالحسبان بمنتهى الوعي ، المهام البدئية الاساسية للنضال ضد الانتهازية والعقائدية « اليسارية » وأن يأخذوا بالحسبان كذلك الخصائص الملموسة التي يتخذها هذا النضال والتي يجب ان يتخذها في كل بلد على حده ، تبعا للخصائص المميزة التي تسم اقتصادها وسياساتها وثقافتها وتركيبها القومي (ارلنده وغيرها) ومستعمراتها وتقسيماتها الدينية ، وهلم جرا والخ .. »

واضاف كاتبها عن القيادة العامة للثورة :

« ان من الضروري أن ندرك بجلاء ان مثل هذا المقر القيادي لا يمكن بأية حال أن نوجده على أساس قولبة القواعد التكتيكية للنضال وتسويتها وتوحيدها بصورة ميكانيكية . فما دامت الفوارق من حيث القوميات والدول موجودة بين الشعوب والبلدان ، وهذه الفوارق ستبقى زمنا طويلا وطويلا جدا ، حتى بعد تحقق ديكتاتورية البروليتاريا في النطاق العالمي ، فان وحدة التكتيك العالمي لحركة العمال الشيوعية في جميع البلدان لا تتطلب ازالة التنوع ، ولا استئصال الفوارق القومية (الامر الذي ليس في اللحظة الراهنة الا اضرار احلام) بل تتطلب تطبيق المبادئ الاساسية للشيوعية (السلطة السوفياتية وديكتاتورية البروليتاريا) بشكل يعدل بصورة صحيحة هذه المبادئ في الجزئيات ، ويجعلها تتلاءم وتنسجم بصورة صحيحة مع الفوارق القومية والفوارق بين الدول ... » (١)

وكتب ضد يونيوس ، مبينا خطأه :

« ومكان الخطأ هو المغالاة بهذه الحقيقة (شبح الحرب الوطنية) والانحراف عن الماركسية فيما يتعلق بمطالبتها بمراعاة ظروف الزمان والمكان ... »

« ان وجه الخطأ في هذه الحجة واضح كل الوضوح . وغني عن القول ان المبدأ الاساسي في الديالكتيك الماركسي يتلخص في كون جميع الحدود في الطبيعة وفي المجتمع هي اصطلاحية ومتحركة ،

(١) المختارات ١/٣ ص ٥٤٨ مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية ١٩٢٠

وانه لا توجد ظاهرة من الظاهرات ، الا ويمكنها اذا توافرت ظروف معينة ، أن تنقلب الى ضدها . فالحرب الوطنية يمكن أن تتحول الى امبريالية وبالعكس .

« ... غير أننا نبقى ديمالكتيكين اذا ناضلنا ضد السفسطات ، لا عن طريق انكار احتمال كل تحول بوجه عام ، بل عن طريق تحليل الظاهرة في ظروفها المعينة وفي تطورها تحليلاً ملموساً .. » (١)

ونقد سوفارين فقال :

« غير أن المفاهيم العامة والمجردة كمفهوم « اللوطنية » هي مفاهيم لا قيمة لها البتة من وجهة نظر الماركسية . ان الوطن والامة هما طوران تاريخيان » (٢) الخ .. الخ ..

ونتيجة لذلك ، نتيجة للتحليل الملموس للواقع ، وللابتعاد عن المجرد والعام ، ونتيجة لدراسة الحالات الخاصة في وضعها التاريخي ، توصل لينين الى أطروحات جديدة غدت كأنها هي الاسـس الثابتة اللينينية ، ونسبي (بضم النون) الاسـاس الحقيقي ، وفي ذلك طعن لأفكار لينين وأسسـه . لقد غدت الأطروحات الجديدة ، بمثابة العام ، المجرد الذي حاربه دائماً ، أما الاسـاس الحقيقي — المنهجي — فقد انزوى — كلمة — على الهامش للدلالة على مرونة الماركسية واللينينية ! وبذلك رجعت هذه « الماركسية » لتكون كما كانت أيام « كاوتسكي » عقيدة جامدة ، وقانون ايمان . وأصبح المنظر للواقع الملموس بطريقة ملموسة ، للواقع الخاص ، والمكتشف للجديد ، كافراً وتحريفياً يستحق اللعنة ! فهو ويا للعجب ، يرفض القولية ، والقسر الميكانيكي ، ويريد جعل الماركسية في العلم منهجاً ، ومرشداً للعمل ، يريد جعل الماركسية عملاً مستمراً ، وبحثاً متتابعاً ، لا شعارات ، ونداءات وقوانين الهية !

(١) مجموعة : حركة شعوب الشرق الوطنية التحررية ص ٢٥٧ حول كراسية يونيوس

(١٩١٦) دار التقدم — موسكو

(٢) المرجع السابق : ص ٢٩١ كتاب مفتوح الى سوفارين ١٩١٦

لقد التزم لينين بالواقع ، بالخاص ، ولم يجد رهبة بأن يقول ان تلك القضية الماركسية المعروفة لا تنطبق على بلده ، أو ان التطور قد تعداها ، على حين كان خصومه لا يزالون عند الكلمات ، لا يرون الواقع ، ولا يريدون رؤيته ، بل يريدون قسر الواقع على النزول بالقلب الجاهز . ورد لينين بأن العلاقة بين المطلق والنسبي علاقة نسبية أيضا . من هنا اتسام حركات لينين وأقواله بالمرونة ، وبمعنى آخر اتسامها بالجدل ، أي اعتبار الواقع هو الأساس ، فيتبدل التحليل بتبدل الواقع ، وبالتالي يتبدل التاكيد بتبدل التحليل . وبالقضية الأولى ننشئ العلم النامي والمتطور ، وهو ما بيناه أعلاه ، وبالقضية الثانية نصنع الفلسفة كتخطيط يبدل الواقع باتجاه الهدف العام ، وهو ما سنعالجه بعد حين .

★★★★

اذن يجب أن ندرس الواقع الخاص وأن نحله بطريقة ملموسة ، لكن ماذا ندرس ؟ الشائع في الماركسية ، ان ما يجب دراسته هو الاقتصاد . ألم يدرس ماركس الاقتصاد في رأس المال ؟ نعم درس ماركس الاقتصاد ولكن لينقه كحالة شاذة تتأني في البضاعة ويتشأ فيه الإنسان . ولم يدرسه كمطلق ، كخالق يفسر كل شيء .

وقد مر معنا قول لينين اننا يجب أن ندرس كل شيء ، جميع العلاقات جميع العوامل ، وأن ندرسها في حركتها . اذن القضية ليست تحليلا للواقع الاقتصادي فحسب ، كما يشاء بعضهم . لقد هاجم لينين هذه النزعة الاقتصادية عامة ، وقليل ما حل وفسر الأمور بالاقتصاد وحده . (١) ولكن مثل هذا الكلام العام لا يكفي ، لذا يجب أن ننقل الى التفاصيل . نعم يجب أن نحلل الواقع ، ولكن أي واقع ؟ وماذا يوجد في الواقع ، الواقع الاجتماعي المموس ؟

(١) مثال على نزعة الاقتصادية القليلة نفسه لانحرافات الاشتراكيين في أوروبا بالواقع الاقتصادي لا باخطاء الأشخاص أو الخصائص أو التقاليد القومية .. الخ : راجع ماركس - أنجلز - الماركسية ص ٣٢٨

يبدو السؤال بسيطا وسطحيا . وماذا يمكن أن يوجد في الواقع
الا الواقع ! ولكن ما يبدو بسيطا يغفل
(بضم الياء) ، لذا يبدو أساسيا لعمقه ،
وبسبب الأخطاء المرتكبة ، لا في العلوم الاجتماعية المعقدة فحسب ،
بل وفي العلوم الطبيعية ، ومن هنا دخول المثالية الى المعامل ، لتخرج
نظرية علمية مزيفة مسرلة بأثواب الكهنوت ، ودعك من الاثواب
الذاتية ، على هذا النحو اكتشف نيوتن الله في نظريته العلمية ،
واكتشف سواه مبدأ الحياة المطلق ومبدأ الغائية .. الخ .. الخ
فما بالك بالعلوم الاجتماعية ؟!

وليس كافيا أن نقول بالموضوعية وبالنزاهة ، ليس كافيا أن نطالب
العالم بترك أفكاره على أبواب معمله ، لان المصالح تندس بالقوة
عبر كل كلمة ، لتخرج الينا قائلة بأن الموضوعية تريد هذا ، مثلما
كانت المصالح تخرج في القديم قائلة بأن الله يريد هذا .
وقد يقول القاريء ، ان هذا مفيد للحذر من أحابيل المثالية
ومصالح الطبقة المستبدة التي تتستر بالنظريات العلمية ما دامت
« الموضة » الان الثقة المطلقة بكل ما هو علمي . وهذا درس قديم ،
فما الفائدة من ادخاله في هذا البحث عن اللينينية ؟ بيد أن الفائدة
أعظم ونحن نبحث في اللينينية وفي الماركسية ، ما دام السائد عنهما
لوحة مشوهة ترد كل شيء الى الواقع الملموس لفظا ، ثم ترد كل
الواقع الى الانتاج الاقتصادي . ألا يحق عندها أن لا نتقبل سطحية
السؤال — ما الواقع ؟ — لنحدده كما حدده لينين ، كبديل لتلك
اللوحة المشوهة . من دون أن ننسى أن أحد **خلافتات لينين** مع
خصومه ، انها يتردد **للاختلاف على تحليل الواقع** .

ان الخطأ الاول الذي يقع فيه الباحث ، هو حصر نفسه في حيز
ضيق معتبرا اياه ممثلا لكل الواقع ، وتجاه هذا الخطأ ، يؤكد لينين
على النظرة الشمولية التي تبحث في كل مكونات الواقع وفي كل
عناصره .

والخطأ الثاني الذي يقع فيه الباحث ، هو عدم ادراكه لحركة
الواقع ، فيبحث فيه كشيء ثابت ، من دون أن ينتبه الى التغيرات
التي يمكن أن تغلب النتائج ، فتجعل ما هو هامشي أساسيا ،
وتجعل ما هو أساسي عرضيا . ومقابل هذا الخطأ يؤكد لينين

على النظرة الجدلية التي تبحث في الحركات الذاتية للواقع ضمن اطار تاريخي . فالواقع دائما هو الواقع التاريخي المحدود زمنا ومكانا .

الخطأ الثالث ، هو عدم ادراك تمايز الواقع عن سواه وتفرد ه واصالته بما هو تاريخي . مما يؤدي الى التساهل في البحث ، ورؤية التشابه فقط ، وبالتالي سحب النظريات العامة على كل مكان وزمان ، مع احتياط شكلي عن مرونة النظرية العامة . وضد هذا الخطأ يؤكد لينين على اصالة الواقع تاريخيا وبذلك ينسف قضية « بعض الخصائص المميزة » ضمن النظرية العامة والتي لا تلغي النظرية بل تعدل ذاك القسم الجزئي وتلك الفقرة الهامشية . ينسف هذا ليؤكد على أن الاساس هو الخاص ، لا العام .

الخطأ الرابع ، هو أن الباحث يأخذ كل تلك الامور بعين الاعتبار ، فيصل الى نظرية عامة ، ويحسب أنه وصل الى الكمال ، وينسى ان الواقع يتبدل ولا يتوقف ، ولذا فان البحث يجب أن يستمر في الواقع لدراسة التبدلات الجديدة وللخروج بنظرية أخرى ، ثم أخرى . من هنا نفهم دياكتيك لينين العملي الذي مرده متابعة تحليل الواقع بصورة مستمرة من دون توقف والذي يساءفهمه ، فيسمى بالمرونة (بمعنى التذبذب) تارة . ويسمى بالحنكة السياسية (بمعنى المكر) تارة أخرى ، على حساب المبادئ !

هذا كله نجده في النصوص السابقة مكررا ، ونجده في كل نصوص لينين ، اذ من دون هذا المنهج ، لا يبقى للينينية أي مضمون مميز . مع ذلك سنختار نصوصا أخرى تؤكد هذا عبر بحثنا عن النظرة الشاملة للواقع . ماذا يشمل الواقع الملموس ؟

يشمل الواقع ، وجودا ماديا واقتصاديا من عمل الانسان ، وجودا اجتماعيا تاريخيا يتبدل بحسب جدلية الاقتصاد (المادة عموما) والسياسة ، بحسب جدلية البشر مع الوجود . فالواقع يشمل اذن الوجود المادي والجماعات (صراع الطبقات) والمبادئ (الايديولوجيات المتصارعة) وبواقي (رواسب) التراث الانساني . وبكلمة موجزة : **يشمل الواقع ، الوجود المادي بما فيه الوجود المادي للبشر ، والمبادئ والاهداف المختلفة ، وبينها العمل الانساني**

او الممارسة الانسانية ، يشملهم في جدلية تاريخية ، يكون بها التاريخ
ويكون بها التقدم . فأين يقف لينين من كل هذا ؟

في بحثه عن ماركس يبرز لينين أطروحة العمل وبالتالي صراع الطبقات وأطروحة علاقات الإنتاج . يقول : « واذا كانت المادة ، بوجه عام ، تفسر الوعي بالكائن ، وليس بالعكس ، فهي تتطلب عند تطبيقها على الحياة الاجتماعية للإنسانية ، تفسير الوعي الاجتماعي بالكائن الاجتماعي . يقول ماركس : ان التكنولوجيا تبرز أسلوب عمل الانسان تجاه الطبيعة ، أي العملية المباشرة لإنتاج حياته ، وبالتالي ، الظروف الاجتماعية لحياته وافكاره ، والمفاهيم الفكرية التي تنجم عن هذه الظروف . » ويقول أيضا : « ان الناس ، أثناء الإنتاج الاجتماعي لحياتهم ، يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ضرورية ، مستقلة عن ارادتهم . وتطابق علاقات الإنتاج هذه درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية . »

ويضيف لينين الى ذلك قوله شارحا : « ومجموع علاقات الإنتاج هذه يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع ، أي الاساس الواقعي الذي يقوم عليه بناء فوقه حقوقي وسياسي ، وتطابقه أشكال معينة من الوعي الاجتماعي . ان أسلوب إنتاج الحياة المادية يشترط تفاعل الحياة الاجتماعي والسياسي والفكري ، بصورة عامة . فليس ادراك الناس هو الذي يعين معيشتهم بل على العكس من ذلك معيشتهم الاجتماعية هي التي تعين ادراكهم . وعندما تبلغ قوى المجتمع المنتجة المادية درجة معينة من تطورها ، تدخل في تناقض مع علاقات الإنتاج الموجودة أو مع علاقات الملكية . . . وعندئذ ينفث عهد الثورة الاجتماعية . ومع تغير الاساس الاقتصادي يحدث انقلاب في كل البناء الفوقي الهائل . » (١)

ويعتبر لينين هاتين الاطروحتين (علاقات الإنتاج ، والعمل) تصحيحا لعميين رئيسيين في النظريات التاريخية السابقة . قال : « أولا : لم تكن هذه النظريات تأخذ بعين الاعتبار ، في أحسن الحالات

غير الدوافع الفكرية لنشاط الناس التاريخي ، دون أن تبحث عما يولد هذه الدوافع ، دون أن تدرك القوانين الموضوعية التي تسير تطور نظام العلاقات الاجتماعية ، دون أن ترى جذور هذه العلاقات في درجة تطور الانتاج المادي . ثانيا : كانت النظريات السابقة تهمل ، على وجه الضبط ، عمل جماهير السكان بينما مكنت المادية التاريخية ، لأول مرة ، من دراسة الظروف الاجتماعية لحياة الجماهير ، ومن دراسة تغيرات هذه الظروف بدقة العلوم الطبيعية . (١)

وتحت مثل هذا البحث النظري البحث ، نص لينين على الموقف الاحادي فحسب ، على الرغم من تأكيده على العمل ، فلهجته القطعية التالية ، تجعل كل الامور ثانوية ، أما الاساس فهو الانتاج والانتاج فحسب . « لقد شقت الماركسية الطريق أمام دراسة واسعة شاملة لعملية نشوء تشكيلات المجتمع الاقتصادية وتطورها وانهارها ، وذلك بتحليلها مجموعة الميول المتناقضة وردّها الى ظروف المعيشة والانتاج ، الواضحة المعالم ، لمختلف طبقات المجتمع ، وبإبعادها اختيار الافكار القائدة أو تأويلها على نحو ذاتي واعتباطي ، وبكشفها عن جذور جميع الافكار ، وجميع الميول المتباينة في أوضاع القوى المنتجة المادية دون استثناء ... » (٢)

ونتيجة لظروف الانتاج ينشأ النضال الطبقي . وينقل عن البيان الشيوعي أن تاريخ كل مجتمع الى يومنا هذا (ثم يضيف أنجلز فيما بعد : ما عدا المشاعة الابتدائية) لم يكن سوى تاريخ نضال بين الطبقات ... » (٣)

وهذا ما سعيت الى دحضه في الفصول السابقة عن الماركسية وباسم رأس المال . فهل اللينينية تنقف على هذه العتبة من البداية الى النهاية ؟ وهل هي هذه « الماركسية السطحية » التي ترد كل الامور الى الانتاج والانتاج فحسب ؟

(١) المرجع السابق ص ٤١

(٢) المختارات ١/١ ص ٤١

(٣) المرجع السابق ص ٤٢

لا ، لم يقف لينين ، عند هذا الحد ، لانه تشبع بالجدل ، ولانه أدرك بانه مع مثل هذه السطحية نقصي أهم جدل في الوجود . وهو جدل البشر مع الانتاج والمادة . من هنا سنجده يقف من داخل الجدل ليعارض هذا الابتذال ، ويرى الواقع بشموليته ، والجدل بأطرافه .

من هنا تقتضي ضرورة البحث ، أن ننقل مع لينين الى قضايا الواقع لنبحث عن الواقع . وبذلك ننقل الى التحليل الملموس للواقع الملموس ، لتعيين عناصره ، بدل ذاك التعيين المجرد .

جابه لينين الماركسية وقد غدت قانون ايمان ينص على أن الانتاج هو الأساس (كما هو الامر أعلاه) وهو الذي يصنع التطور ، فاذا ما وصل الانتاج الى مرحلة الرأسمالية ولد بصورة حتمية نتيجة لتناقضات هذه المرحلة ، ولد الثورة الاشتراكية . على هذا الأساس يضع الاشتراكيون أهدافهم مطالبين بالإصلاحات الاقتصادية فحسب ، بانتظار وصول الانتاج الى تلك المرحلة ، اذ تلقائيا سيتولد العمل السياسي والوعي السياسي والثورة . اما قبل ذلك فالامر غير جائز ، ولا فائدة منه .

يقف لينين ضد كل هذا التشويه ، ويسميه بالنزعة الاقتصادية . « فان الطبقة العاملة اذا ما حشرت نفسها في النضال الاقتصادي فقدت استقلالها السياسي وسارت في ذيل الاحزاب الاخرى وخانت تلك الوصية الكبيرة القائلة : ان تحرير العمال يجب أن يكون من صنع العمال أنفسهم » (١) .

والسبب في هذه النزعة الاقتصادية يرتد الى اعتقاد اصحابها بأن « السياسة تسير دائما بطواعية (في نص اخر بخنوع) خلف الاقتصاد » و « هذا غير صحيح بتاتا » و « وقد كان هذا تحطيما تاما للوعي من قبل العفوية » (٢) عفوية أولئك الذين يرون « ان السياسة هي بناء فوقه ولذلك ينبغي للتحرير السياسي أن يكون

(١) المختارات ١/١ ص ١٤٨ المهمات الملحة لحركتنا (١٩٠٠)

(٢) المختارات ١/١ ص ١٩٢ و ١٩٩ ما العمل (١٩٠٢)

بناء فوقيا للتحريض على النضال الاقتصادي ، ينبغي أن ينمو على
صعيد هذا النضال وأن يسير في أثره « (١) .

وبكلمة أخرى : « لقد تعلم الاقتصاديون عن ظـهر قلب ان
السياسة أساسها الاقتصاد ، وفهموا هذا بمعنى انه يجب الهبوط
بالنضال السياسي الى مستوى النضال الاقتصادي » (٢) .

وبكلمة ثالثة : « ان السياسة هي بناء فوقي ولذلك ينبغي
للتحريض السياسي أن يكون بناء فوقيا للتحريض على النضال
الاقتصادي ، ينبغي أن ينمو على صعيد هذا النضال وأن يسير في
أثره » (٣) .

وفي الواقع يجابه هذا التفسير الآلي للماركسية اشكالا يعجز عن
حلـه : هل يجب أن ننتظر تأزم الرأسمالية لنصنع الثورة ؟ هل هذا
التأزم سيصنع حتما الثورة على ما يقال ؟ ماذا نفعل اذا لم يصل
الانتاج الى تلك المرحلة ؟ وماذا اذا ظل ذاك الحتم امكانا في طي
الزمن ؟

ان ما يجب أن يقال هو : لنذهب الى بيوتنا ، ما دام الانتاج هو
الصانع ، والخالق للثورة ، ألم يقل هؤلاء الاقتصاديون « ان جميع
جهود النظريين الأكثر الهاما لا يمكنها أن تخرج حركة العمال عن
الطريق الذي حدده لها تفاعل العناصر المادية والبيئة المادية » .
بيد أن لينين يضيف بعد أن يعرض رأيهم : أن هذه العبارة « تعادل
تماما التخلي عن الاشتراكية .. » (٤)

قلت : لنذهب الى بيوتنا ، وقال لينين ما هو أكثر شاعرية ، وأكثر
سخرية : « ما دام الماركسيون يعتبرون الرأسمالية في روسيا أمرا

(١) المختارات ١/١ ص ٢٠١ ما العمل (٢) المختارات ٢/١ ص ١١٦ خطا
الاشتراكية (١٩٠٥)

(٣) المختارات ١/١ ص ٢٠١ ما العمل (٤) المرجع السابق ١٩٦

محتوما وتقديميا فينبغي عليهم أن يفتحوا خماره وينصرفوا الى غرس
الرأسمالية « (١) . وهذا ما تؤدي اليه تلك النظرية عن الحتمية !

أين موضع الخطأ ؟

حل لينين الاشكال السابق بتبيان العلاقة بين الواقع المادي
والهدف الانساني ، بين العلم والفلسفة ، بتبيان ديالكتيك الانسان
مع الوجود ، جدل الافكار والعمل مع الواقع المادي (والاقتصادي) .
هل الاقتصاد « صانع » و « خالق » الثورة ؟ هل تأزم الوضع
يؤدي الى حتمية لا مفر منها ؟ ان ناقدى الاشتراكية يتبحجون وهم
ينقدون الماركسية صارخين بفرح : لم تقم الثورة ، ولم تصدق تلك
الحتمية ، فالماركسية مذهب خاطيء . وهم في الحقيقة لا ينقدون
الماركسية ، بل ينقدون هذا التشويه الذي أصابها . أما الماركسية
فقد وضحتها لينين عندما بت في القضية ذاهبا الى أن الوضع المادي
لا ينشئ تطورا ولا يصنع ثورة ، بل ينشئ العفوية . ذلك ان
الماركسية لم تستبدل خالقا من القيم بخالق من تراب ، بل جعلت
الثورة نتاجا لجدل الانسان مع الوجود ، لجدل الطبقة المظلومة ،
وقد وعت وتنظمت وحددت أهدافها بما يتناسب مع معطيات
الاقتصاد والوجود كله .

**الاقتصاد ، المادة .. تنتج العفوية ، تنتج الفوضوية ، تنتج
الاقتصادية ، ولا تنتج الثورة ،** لذا فنقد أعداء الماركسية ساقط
سلفا . ان تأزم تناقضات الرأسمالية ولدت العفوية ، وولدت
الفوضوية .. وولدت الاصلاحية ، واذا كانت الثورة لم تلد ،
فلان الوعي والتنظيم ، لم يصل الى الدرجة الصانعة للثورة .
ولان الوعي والتنظيم المضاد ، كان ماديا على نحو أعظم فبعثر
وسحق العفوية . ومن هنا فالأمل لا يزال معقودا ، على المضطهدين
ليعوا ولينتظموا ، وليصنعوا ثورتهم .

كتب لينين « **لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية** » (٢) . وكتب أيضا
« وبودنا فقط أن نشير هنا الى أنه لا يستطيع القيام بدور مناضل

(١) المختارات ٢/١ ص ٣٩٦ الامبريالية اعلى مراحل الاستعمار ١٩١٧

(٢) المختارات ١/١ ص ١٧٩ ما العمل سنة ١٩٠١

الطليعة الا حزب يسترشد بنظرية الطليعة » (١) وكتب ايضا :
« والواقع انه لم يشك احد حتى الان ، كما يبدو ، في أن قوة الحركة
المعاصرة تكمن في يقظة الجماهير (وبصورة رئيسية البروليتاريا
الصناعية) وفي أن ضعفها يكمن في عدم كفاية وعي ومبادرة القادة
الثوريين » (٢) .

ما معنى هذا ؟ ان خصوم لينين يؤكدون على الوضع الراهن
الخالق ويسجدون له . أما لينين ورفاقه فـ « على العكس ، غير
راضين عن هذا السجود أمام العفوية أي أمام ما هو كائن في الظرف
الراهن » (٣) .

معنى ذلك أن الانتاج ليس خالقا للوعي ولا للثورة ، بل هو خالق
للعفوية (للاضرابات مثلا) ، وان الاختلاف العام في جذره العميق
يرتد « الى الاختلاف في تقدير الاهمية النسبية للعنصر العفوي
وللعنصر المنهجي الواعي » (٤) .

ان الاضرابات شكل من اشكال العفوية ، والعفوية « شكل
جنيني للوعي » ولذا لا يمكن اعتبار تلك الاضرابات التي حصلت
اضرابات اشتراكية لان العمال لم يعوا بعد التضاد بين مصالحهم
والنظام . « قلنا ان الوعي الاشتراكي — الديموقراطي (الشيوعي
فيما بعد) لا يمكن أن يوجد آنئذ لدى العمال ، اذ انه لا يمكن
للعمال أن يحصلوا على هذا الوعي الا من خارجهم . ولنا في تاريخ
جميع البلدان شاهد على أن الطبقة العاملة لا تستطيع أن تكتسب
بقواها الخاصة غير الوعي التريديوينوني أي الاقتناع بضرورة
الانتظام في نقابات والنضال ضد أصحاب الاعمال ومطالبة الحكومة
باصدار هذا أو تلك من القوانين الضرورية للعمال ، الخ .. أما
التعاليم الاشتراكية فقد انبثقت عن النظريات الفلسفية والتاريخية

(١) المرجع السابق ص ١٨٠

(٢) المرجع السابق ص ١٨٣

(٣) المرجع السابق ص ١٧٦

(٤) المرجع السابق ص ١٨٤

والاقتصادية التي وضعها المتعلمون من ممثلي الطبقات المالكة ،
وضعها المثقفون . » (١)

الاختلاف بجوهره ، هل الانتاج يصنع الوعي أم لا ؟ فاذا كان الامر كذلك ، صدق ما قاله الاقتصاديون ، وبالتالي علينا عندما نحلل الواقع الملموس أن نحلل الاقتصاد فحسب . واذا كان الامر غير ذلك ، علينا أن نحلل جميع عناصر الواقع ، بما فيها النظرية كقوة فعالة في الواقع ، تؤثر فيه ويتأثر فيها .

نقل لينين كلمات كاوتسكي (قبل أن ينحرف) ووصفها بأنها كلمات هامة وعميقة في صدقها ، قال كاوتسكي :

« يحسب كثيرون من نقادنا المحرفين ان ماركس قد اكد أن التطور الاقتصادي والنضال الطبقي لا يخلقان ظروف الانتاج الاشتراكي وحسب ، بل يخلقان مباشرة أيضا وعي (٠٠) ضرورته ... وعلى هذا الاساس يبدو الوعي الاشتراكي نتيجة مباشرة محتومة للنضال الطبقي البروليتاري . وهذا غير صحيح على الاطلاق . ان الاشتراكية والنضال الطبقي ينبثقان أحدهما الى جانب الآخر ، لا أحدهما من الآخر . انها ينبثقان من مقدمات مختلفة . فالوعي الاشتراكي الراهن لا يمكنه أن ينبثق الا على اساس معارف علمية عميقة .. وعلى ذلك كان الوعي الاشتراكي عنصرا يؤخذ من الخارج وينقل الى نضال البروليتاريا الطبقي ، لا شيئا ينبثق منه بصورة عفوية . » (٢)

من هنا يضع لينين مهمة الوعي والتنظيم كمهمة أولى ، مهمة الوعي السياسي والاقتصادي ومهمة تنظيم حزب ثوري يعمل لتحقيق أهدافه . هذا هو مضمون ما العمل أو المسائل الملحة لحركتنا ومضمون المهمات الملحة لحركتنا . كتب : « ومن هنا تنبع تلك المهمة التي يترتب على الاشتراكية — الديمقراطية الروسية تحقيقها

(١) المرجع السابق ص ١٨٦ ، ولا بد أن القارئ يشعر بالتناقض بين هذا وما قلناه عن العام والخاص . وسوف نعالج هذا عند بحث الهدفية في الماركسية .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٥

وقوامها : بث الافكار الاشتراكية والوعي السياسي في جمهور البروليتاريا وتنظيم حزب ثوري مرتبط أوثق الارتباط بالحركة العمالية العفوية « (١) » .

اذن فالعفوية مخطئة ، لانها تنطلق من منطلق خاطيء ، تنطلق من ان تحليل الواقع يعني تحليل الواقع الاقتصادي ، وبحسب هذا الواقع يحدد الاشتراكيون هدفهم ، وبالنتيجة يقعون في الاصلاحية وبالتالي يقعون تحت الايديولوجية البورجوازية .

الاقتصاد ليس العنصر الحاسم ، لانه الى جانبه يقف الوعي اي الافكار ، وبالتالي العمل او الممارسة . ونؤكد يقفان بجانبه ولا ينبثقان عنه . بل ويتقدمان عليه ، وهو موضوع نقاش اخريفتحه لينين هذه المرة ضد كاوتسكي واتباعه في حديثهما عن روسيا التي لم تنضج بعد للثورة بسبب العامل الخلاق ، اي بسبب الاقتصاد الصانع للثورة ، وكان كاوتسكي نسي ما قاله اعلاه عن الانبثاق جنباً الى جنب ، لا الانبثاق من بعضهما بعضاً ! وسنعالج ذلك بعد حين ، وذلك عندما نتحدث عن النظرية والهدفية . وفي الحقيقة ان ما عرضناه اعلاه عن الوعي يدخل في ذاك البحث ايضاً ، ولكننا أردنا أن ننظر في الاقتصادية في حدودها النهائية بقضية ملموسة ، لنرى الى اين يقود تحليل الاقتصاد كممثل وحيد ترتد اليه كل عناصر الواقع .

ولا يعني هذا الاقلال من شأن العنصر المادي ، والاكتفاء بالعنصر الذاتي . بل يعني هذا رؤية شمولية للواقع للعنصرين الذاتي والموضوعي ، وعدم الغاء أحدهما ، وعدم رد أحدهما للآخر . بل ويعني رؤية الجدل بين هذين العنصرين .

يحلل لينين شروط الثورة ، ويبين أن هناك شرطين هما الموضوعي او (الوضع الثوري) والذاتي . وينص على أن التغيرات الموضوعية تنشأ ، ولكن مع ذلك لا تتولد الثورة الا اذا اضيف اليها التغير الذاتي .

كتب لينين :

« لا بد . . لانتصار الثورة الاجتماعية من شرطين على الأقل ، تطور كبير للقوى المنتجة واستعداد البروليتاريا » (١) .
وذكر لينين :

« ان الماركسي لا يشك مطلقا في ان الثورة مستحيلة دون وضع ثوري ، ولكن ليس كل وضع ثوري يؤدي الى الثورة » .
ويحدد دلائل الوضع الثوري بما يلي :

١ — نشوء أزمة في سياسة الطبقة السائدة تؤدي الى صدع يتدفق منه استياء الطبقات المستغلة وغضبها . اي انه يستحيل على الطبقة السائدة الاستمرار والاحتفاظ بسيادتها .

٢ — تفاقم بؤس الطبقات المضطهدة واشتداد شقائها .

٣ — تعاظم النشاط التاريخي للجماهير التي كانت مستسلمة للنهب بهدوء سواء بالنسبة لوضعها السيئ أو لوضع الطبقة السائدة .
ويتابع :

« ودون هذه التغيرات الموضوعية المستقلة لا عن ارادة هذه الكتل والاحزاب او تلك وحسب ، بل أيضا عن ارادة هذه الطبقات أو تلك ، تستحيل الثورة ، بوجه عام . »

بيد أن هذا الوضع الثوري « كان قائما أيضا في سنوات العقد السابع من القرن الماضي في ألمانيا ، وكذلك من ١٨٥٩ الى ١٨٦١ ومن ١٨٧٩ الى ١٨٨٠ في روسيا وان لم تقع ثورات في تلك الفترات . لماذا ؟ لان الثورة لا تنشأ عن كل وضع ثوري ، إنما تنشأ فقط اذا انضم الى جميع التغيرات الموضوعية المذكورة آنفا تغير ذاتي ، واعني به قدرة الطبقة الثورية على القيام بأعمال ثورية جماهيرية قوية بحيث أنها تحطم (أو تصدع) الحكم القديم الذي لن « يسقط » أبدا حتى في فترة الازمات ، ان لم « يعمل على إسقاطه » (٢) .

(١) مجموعة حول كومونة باريس : ص ٣٥ في ذكرى الكومونة دار التقدم - موسكو .

(٢) كراسة « افلاس الاممية الثانية » ص ١١-١٢ (١٩١٥) دار التقدم - موسكو .

وكيف تتكون هذه القدرة الثورية ؟

تتكون — أولا — بالوعي ثم بالتنظيم الثوري . تتكون عندها تلفت الجماهير حول نظرية تجسد واقعها وتجسد آمالها .

وتتكون — ثانيا — بالعمل الدؤوب لتحويل الآمال الى واقع ملموس ، بالعمل المثمر لدك وتحطيم المستغلين .

العنصر الموضوعي هو المادة ، وهو الانتاج ، وهو الانسان بما هو مادة حية ، وهو المجتمع بما هو قوى تتصارع على شكل طبقات ، طبقة تسرق عمل طبقة ، وهو الدولة بما هي أداة للطبقة المستغلة ، (بكسر الغين) تستخدمها لقهر الطبقة المستغلة (بفتح الغين) ، ولاجبارها على بيع عملها وبيع حياتها .

أما العنصر الذاتي فهو الافكار والعمل . وقد كانت النظريات السابقة ترد التطور الى الافكار . فوقفت المادية لتعكس هذا الاتجاه ، ولترى أن الافكار بحد ذاتها ما هي الا انعكاس للمادة ، وبالتالي فان التاريخ وحركته يرتدان الى المادة لا الى الافكار . وقد تأثر ماركس بهذا الاتجاه وحاول تعديله في كتاباته الاولى بكشفه عن الانسان الاجتماعي والتاريخي ، لكن ما ساد في كتاباته الاولى (البيان على سبيل المثال) هو أن الانتاج هو القدر الجديد ، وقد تعدى ماركس هذا الاتجاه في « رأس المال » بتثبيته الاجنة البدائية الاولى ، وبمحورة نظريته في رأس المال حول العمل وما تسبقه من افكار وأهداف . ثم يغيب هذا من جديد في تراث الماركسية فالارادة والافكار والعمل كلمات كافرة ولكن لتظهر من جديد ومع لينين أيضا ، عبر تحليلاته للواقع الملموس وبذلك يستعيد الجدل وضعه الطبيعي . فالجدل ليس جدل الطبيعة وحدها ، بل هو وبالاساس جدل الانسان مع الطبيعة . وما الواقع الا هذا الجدل بين الطبيعة والانسان وما تحليل الواقع الا تحليل هذا الجدل ، تحليل لجدل القوى المادية مع القوى الذاتية للبشر (افكار — وعي — تنظيم — ارادة عمل) .

كتب لينين عن الوعي :

« ان حزينا يساعدكم بكل ما في طاقته وقبل كل شيء بتوضيح

الوعي فيما يخص اختلاف أوضاع مختلف الطبقات واختلاف قوتها . وهذا ما استهدفته قرارات مجلسنا العام . ودون هذا الوعي لا يعني التنظيم شيئا . ودون التنظيم يستحيل عمل الملايين ، يستحيل احراز أي نجاح كان » (١) .

وكتب عن ارادات الاشخاص :

« ان الماركسية تختلف عن جميع النظريات الاشتراكية الاخرى في كونها توالف بصورة رائعة بين الوضوح العلمي التام في تحليل الحالة الموضوعية والتطوير الموضوعي وبين الاعتراف الجازم الكلي بدور الطاقة الثورية والابداع الثوري والمبادرة الثورية لدى الجماهير ، وكذلك طبعا ، بدور الافراد ، والجماعات ، والمنظمات والاحزاب ، الذين يعرفون كيف يكتشفون ويقيمون الصلة مع هذه الطبقات او تلك . » (٢)

وكتب عن جملة لماركس ما يلي :

« ان هذه الكلمات ، تعبر عن موضوعة من أعمق وأهم موضوعات النظرية الفلسفية التاريخية التي لا يريد ولا يستطيع أصحابنا الشعبيون أن يفهموها . فبقدر ما يمتد ابداع الناس التاريخي ويزداد عمقا ، بقدر ما يجب أيضا أن تزداد هذه الكتلة من جمهور السكان التي هي صانعة واعية للتاريخ » (٣) .

وعندما ذكر جملة ماركس بأن نظريته « من حيث جوهرها نظرية انتقادية ، وثورية » كتب معلقا :

« لاحظوا ان ماركس يتحدث هنا عن الانتقاد المادي ، الانتقاد الوحيد الذي يعتبره علميا ، أي الانتقاد الذي يربط بين الوقائع

(١) المختارات ١/٢ ص ١٨٥ تمهيد لقرارات المجلس العام السابع لعامة روسيا (١٩٠٧)

(٢) مجموعة ماركس - أنجلز - الماركسية ص ٢٨٣ « ضد المقاطعة » سنة ١٩٠٧

(٣) المختارات ١/١ ص ٣٢ « أي ميراث نجح » سنة ١٨٩٧

السياسية الحقوقية ، والاجتماعية والمعيشية الخ . وبين الاقتصاد ، ونظام علاقات الانتاج ، ومصالح الطبقات التي تتشكل بالضرورة في ميدان جميع العلاقات الاجتماعية التنافسية . . » (١)

وكلما مضينا قدما مع لينين تخفت تلك اللهجة النظرية البحتة عن الانتاج ويرتفع صوته مقدرا النظرة الشمولية ، ومقدرا دراسة جميع عناصر الواقع المؤلفة له ، أي العنصر الذاتي والعنصر الموضوعي . وان الامثلة على ذلك لا تعد . وعندما قامت الثورة نتيجة للتنظيم الجيد والوعي الثوري المتقدم من دون أن يكون الانتاج قد وصل الى المرحلة الرأسمالية ، صرخ أصحاب قانون الايمان : يجب أن لا تكون ثورة اشتراكية ، ورد لينين مسفها قانون الايمان وفهمه الميكانيكي . وبعد قيام الثورة كتب الكثير عن العامل الذاتي . فالناس هم العقدة ، ولذا بذل جهدا بالغا ليحدد شروط الطبيعة وقيمها ، مركزا على التنظيم والنظام والطاعة والمثابرة ، والتربية ، واعادة التربية والثقيف . (٢) الخ . . ونكتفي بهذا المثال :

« والان أين العقدة ؟ ان هذه العقدة — وهذا ما أريد أن أسوق اليه تقريرى وأضع خلاصته — ان العقدة ليست في السياسة ، بمعنى تغيير الاتجاه ، وهذا ما يتحدثون عنه بكثرة لا تصدق ، لمناسبة الاقتصادية الجديدة شرعوا يتحركون ، ويعيدون بناء الدوائر ، ويؤسسون الدوائر الجديدة . هذه ثروة ضارة للغاية . لقد خلصنا الى أن عقدة الوضع في الناس ، في اختيار الناس . . . »

« . . . فالعقدة كلها الان ، الا تخشى الطبيعة من العمل لرفع مستواها ، من اعادة تكوين نفسها ، من الاعتراف صراحة بنقص أعدادها ، بنقص مهارتها . العقدة كلها اليوم ، ان تتقدم كتلة اكبر واقلوى بما لا حد له ، ومع الفلاحين حتما ، مبينين لهم بالاعمال ،

(١) مجموعة ماركس — أنجلز — الماركسية ص ١١٤ « من هم أصدقاء الشعب » ١٨٩٤ .

(٢) تراجع على سبيل المثال المختارات ١/٣ ص ٢٨٦ — ٣١٠ — ٣٠٨ — ٣١٢ — ٤٤٣ — ٤٧٠ — ٥١٤ — ٥٣٤ — ٥٣٥ . و ٢/٣ ص ٣٩٦ — ٤٣١ — ٤٣٢ — ٤٤٥ الخ . .

بالطبيق ، بالتجربة ، اننا نتعلم وسنتعلم كيف نساعدهم ، وكيف نفودهم الى الامام ... » (١)

لقد اطلت هذه الفقرة ، بسبب ما تثيره في الماركسية من ارتباك ، نتيجة للاعتقاد النظري ، بأن كل شيء يرد الى الانتاج ، العامل الاساسي والحاسم . والذي يصبح عند دراسة الواقع علميا دراسة للانتاج وحسب . ولذا كان لا بد من تتبع خط لينين بدلا من الاكتفاء بالاستشهاد التقريري عن المادية . ولدى هذا التتبع وجدنا لينين يقف ضد هذا التقرير ، ويستبدله بنظرة شاملة للواقع ابتداء من دراسة الوقائع الموضوعية المادية والاقتصادية الى دراسة النسب في القوى المتصارعة ، الى الاهتمام بالنظرية والوعي والتنظيم ، الى التركيز على الاعمال لا الاقوال ، الى التأكيد على دور الثقافة والعلم والافكار ، بل والمثل (٢) بل والتأكيد على دور الافراد وأمزجتهم وتصرفاتهم (٣) .. الخ .. وكل هذا يعني أمرا واحدا ، هو كون الواقع يشمل كل هذا ، وبكلمة مختصرة يشمل العامل الموضوعي والعامل الذاتي (الافكار — والعمل) . ولذا فان تحليل الواقع يجب أن يشمل تحليلا لهذين العاملين بصورة شاملة .

قال لينين أخيرا ومنذ البدء :

« .. حين أن الماديين (الماركسيين) قد كانوا ، على العكس ، أوائل الاشتراكيين الذين تقدموا بمسألة ضرورة تحليل الحياة الاجتماعية بجميع مظاهرها ، لا فقط مظهرها الاقتصادي . » ونقل عن ماركس ما أكد قوله « أن ماركس قد تطلب صراحة عدم الاقتصاد على المظهر الاقتصادي » . (٤)

(١) المختارات ٢/٢ ص ٢٨٦ و ٢٩٤ المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي سنة ١٩٢٢

(٢) راجع المختارات ١/٢ ص ٥٧٦ العدالة في هل يحتفظ البلاشفة بالسلطة ١٩١٧

(٣) راجع المختارات ٢/٢ أحاديث لينين عن ستالين : فقط ، متسرع .. الخ من ٢٩٦ — ٤٣٢ .. الخ

(٤) كراسة من هم أصدقاء الشعب ص ٤٥ (عام ١٨٩٤) .

وقد أكدنا على العامل الذاتي ، بسبب اهماله في الماركسية الرائجة وباسم الموضوعية ، وضد المثالية . ونحن نفهم أن نحارب الأفكار كامور قبلية وكصناعة للعالم وللوجود من حركتها . ولا نفهم كيف نحارب الأفكار بما هي انسانية ، بما هي علم وأهداف يجادل بها الانسان الوجود عن طريق العمل ، فيبدل الوجود ، ويبدلها عبر ذلك الجدل . وكذلك لم يفهم لينين هذا أيضا ، لذا أكد على الوعي وعلى النظرية وعلى الاهداف .



خلاصة الامر ، ان الاساس الثاني للينينية هو دراسة الواقع الملموس بطريقة ملموسة . وبهذه الدراسة ننشئ علم الاجتماع الماركسي .

ان هذا العلم يكون عندما ننطلق من الماركسية كمرشد عمل يدلنا على أن الواقع متبدل زما ومكانا . ولذا يجب أن نجعل الواقع مرجعنا ، لا أية أفكار مسبقة سواء أكانت أفكارا عامة مثالية أو علمية أو ماركسية ، الواقع هو مرجعنا ، بما هو حالة متفردة ، أصيلة ، زما ومكانا . الواقع هو مرجعنا ، بما يشمل من عناصر موضوعية وذاتية نسبية ومتبدلة .

ان معظم النقد الموجه ضد الماركسية ، انما ينطلق من مثل أعلى (قولا) شبيه بالمثل الأعلى الذي بينته عن العلم الماركسي . وبذلك فان هذا النقد لا يمس الماركسية الصحيحة ، بل يؤيدها (قولا) . وانما ميزة الماركسية الصحيحة انها تقول هذا المثل الأعلى وتحققه فعلا وعملا على حين أن أصحاب النقد غارقون في نقيضه تماما فعلا وعملا . ولذا فالعلم الرأسمالي يسقط الاراء المسبقة في نظرياته ، ليبرر سرقة العمل وليبرر استغلال العامل والفلاح ، وليبرر استعمار الشعوب ، وليبرر حروبه التوسعية مزيدا شرايته وامتلاء جيوبه على حساب بؤس والم الكادحين في كل مكان .

ولنا في تحليلات لينين العلمية مثالا حيا على العلم الماركسي الصحيح الذي يحلل الواقع بشموليته وبحركته وبخصوصيته ، واذا

نضرب بعض الامثلة على ذلك، نحذر من اعتبار تلك النتائج العلمية، بمثابة مبادئ عامة تصلح لكل زمان ومكان ، خاصة وانها لا تعين الحدود بين ما هو تحليل علمي وما هو هدف مرحلي فيها .

— الامبريالية اعلى مراحل الاستعمار .

— القيام بالثورة نتيجة لتنظيم جيد ووعي قوي على الرغم من أن الظروف المحددة مسبقا لم تتحقق — لا ثورة اجتماعية خالصة .

— اتحاد العمال والفلاحين .

— حق الأمم في تقرير مصيرها . يا أيها الأمم المظلومة اتحدي ضد الامبريالية الاستعمارية .

— رأسمالية الدولة كخطوة نحو الاشتراكية .

— لا ضرورة للمرحلة الرأسمالية .

— الضريبة العينية بدل المصادرة .

.. السخ .. الخ ..

والان لماذا لا يمكن اعتبار هذه النتائج أسسا أو قوانين ثابتة ؟

ان الشائع هو أن هذه النتائج قوانين هذا العصر . اذ ما قيمة المنهج (مرشد عمل — تحليل الواقع) اذا لم نصل به الى قوانين ؟ وهذا حق ، على أن نفهم القوانين بالمعنى اللينيني المحدد بالمنهج ، أي أن نفهمها كقوانين نسبية ، متبدلة لا كقوانين ثابتة ، في كل زمان وفي كل مكان ، وهو ما ينحو نحوه الشائع . والحق يقال ، ان الشائع بدوغمائيته ، يرى الجدل ، لكن رؤية ضعيفة ومشوهة ، ولذا فهو ينص على القوانين الثابتة ، ثم يدخل عليها الجدل ، فيرى انها قوانين ثابتة ، في التاريخ ، ولكنها متبدلة لتبدل الظروف التي ولدتها ، ولذا فان الغاء « الثوابت » معناه الفوضى والعفوية . وهم يبدون الجدل أيضا عندما يؤكدون انه على الرغم من أن القوانين ثابتة ، فلا بأس أن عدل الوضع الخاص أو الخصائص المميزة ، القانون ، هنا وهناك . ولكن المهم انه هناك ثوابت نركن اليها .

ان هذا الشائع يدعونا الى مناقشة عدة أخطاء مرتكبة ، وعدة

أمور مختلطة ومتناقضة ، لنجعل موقفنا موقفا صحيحا .

هل جعل لينين نتائجه قوانين ثابتة ؟ لقد جعلها قوانين ، يمكن أن تلتغي لتظهر غيرها في أي لحظة في مجتمعه أولا ، ويمكن أن تكشف سواها في أي مجتمع آخر . وكمن مرة عدل هو نفسه «قوانينه» .

موقف لينين واضح : لا ثوابت .

وقد يعترض علينا بنظرية أنجلز عن مراحل تاريخ الإنسانية ، والتي كررها لينين في بحثه عن الدولة ، ألم يقل أن هذه المراحل تخص جميع البلدان دون استثناء ؟ « (١)

ان هذا الاعتراض ، وسواه ، يوضح التناقض في فكر لينين ، فكيف نخرج منه ؟ القاعدة المعروفة هي جمع كل ما قيل كحقائق منزلة ، فهي تشكل وحدة متماسكة . من هنا يمكن للمرء أن يستشهد بما يؤيد وجهة نظره مع اغفال ما لا يريد . وبذلك تتأسس النزعة التلفيقية ، مثال ذلك يجب أن نؤكد على القوانين كأمر ثابتةحتية وباسم العلم ، فاذا انتقلنا الى الحديث عن الديالكتيك أكدنا على التبدل والمرونة ، وهذا وذاك وسواهما وحدة لا ترتد ولا ترتعش !

وقد جابهنا في حديثنا عن ماركس أمرا مشابها ، ورفضنا النزعة التلفيقية التي تجمع كل ما قاله ماركس في وحدة غيرمنسجمة ، تمحوره حول ما ذكره ماركس في البداية ، وحسمنا الموضوع بمحورة الماركسية حول آخر ما كتبه ماركس في رأس المال ، أي حول علم العمل وفلسفته .

وقد أكدنا آنذاك ان الانسان يتبدل ويتطور أيضا ، وهذا جزء من الماركسية ، واذا كان الوقت لم يتيسر لماركس بأن يكمل مذهبه ، فلن نستطيع انشاء بالجمع وبالتلفيق .

كيف خرج لينين . . ؟ هل حاول التلفيق ؟ كان الواقع معياره ، لا القوانين الثابتة ، التي كان يسميها ساخرا ، ذات « الماركة المسجلة » .

(١) المختارات ١/٣ ص ٣٤٨ وما بعدها : الدولة سنة ١٩١٩ .

وكيف كان عمل لينين ؟ عمليا ، واقعيا ، على أرض الواقع ، التزم بتحليل الواقع ، لا بالمبدأ العام ، فهل ضاع ، وهل وصل السى الفوضى ، وهو يبذل القوانين ؟!

بيد أن من يحلل الواقع ملزم بنقد ما يقابله في المبدأ العام فقط ، لا بنقد كل المبدأ . من هنا نلمس اشكالية فعل لينين ، ومن هنا نفهم حديثه النظري عن المبدأ العام ، وتناقضه مع حديثه الواقعي عن القضايا الملموسة ، عندما يكرر أقواله عن مرشد العمل أو التحليل الملموس . الخ . . بيد أن هذا الاشكال نفسه يرشدنا الى طريق الخروج من التناقض ، وطريق الخروج من التناقض هو أن نفهم جوهر اللينينية ، بالاستناد الى منعطفات لينين بالنسبة الى المبدأ العام ، بذلك نمحور تفكيره ، لا حول ما يكرره عن المبدأ العام ، بل حول مواقفه من الواقع الملموس . **أي أن نجعل أسس اللينينية محورة حول مواضيعه التي عالج فيها قضايا ملموسة في واقعه الملموس .**

هذا المحور لا يزيل التناقض ، بل يقره ، ليخرج منه لصالح الواقع ، وما يفعله «الدوغمائي» ، هو عكس هذا تماما ، إذ يمحور اللينينية حول المبدأ العام ، رافضا الاقرار بالتناقض ، مصرا على التلفيق . بيد أن اغماض العيون لا يجدي . فالتناقض يفتأ العيون . وقد خرج لينين من التناقض بالتزامه الواقع ، من دون أن يعبا أن كان ما وصل اليه يطعن المبدأ العام أم لا . فطريقته مشبعة ، بل غارقة ، في ادراك الجدل ، وفي ادراك التبدل والتطور . لذا كرر وكرر الواقع والواقع ، الخاص والخاص . فما أحرانا أن نلتزم بطريقته ونحن نعالج ما وصل اليه من قوانين أو نتائج . **ما أحرانا أن نقف موقفه من المبدأ العام الماركسي ونحن نعالج المبدأ العام اللينيني .**

اذن يجب أن نلتزم بالواقع وبالخاص ، وأن نعتبر الماركسية واللينينية مرشد عمل لا قوانين ايمان ثابتة ، لا قوانين ثابتة . وهذه هي اللينينية . هذا أولا .

وهذا يعني أن نتائج لينين قوانين نسبية ، لا قوانين ثابتة ، تصلح لكل زمان ولكل مكان من دون استثناء . وهي عرضة للتبدل

في مجتمع ، وفي مجتمع آخر قد نكتشف سواها . ويقرر ذلك العلم فقط وهو يحلل الواقع .

وما يطرح عن قضية التثبيت من القانون ، وتعديل بعض اطرافه، هو عكس للمنهج ، اذ نقيس الخاص على العام ، والاساس هو استخلاص العام من الخاص ، بذلك لا يبقى القانون قانونا ، بل يصبح فرضا . الوجود متبدل ، فالقانون عنه متبدل ، ولا ثوابت . والمعيار هو الوجود ، الواقع ، وهو المرجع الاول والاخير . وهذا لا ينفي العلم ، بل يقره بوضعه الجدلي . فكما أن الواقع متبدل كذلك يجب أن تكون معرفتنا عنه ، وبقدر ما نكون واعين لتبدلات الواقع بقدر ما سوف نكون مالكين لهذا الواقع ومسيطرين عليه ، والا فسوف نكون مسيرين له ، خاضعين ، عفويين .

وهكذا تظهر لنا اشكالية القوانين العلمية ، بما هي نسبية ، والحل لا يكون بالصعود فوقها ، وبقها لها . بل يكون برؤيتها الرؤية الواضحة .

الواقع متبدل ، ونحن لا نستطيع نظريا أن نقرر أن هذا القانون يصلح لساعة أو لسنة ، أو لعصر ، حتى نقرر ذاك الثبات النسبي . الواقع هو الذي يقرر وحده ، والعالم هو وحده الذي يصف ، من خلال رصده للواقع . بذلك لا نستطيع الا أن نتابع رصد الواقع لكشف احتمالاته ، والتنبؤ بما سيكون ، وتحليل ما هو كائن .

لذلك فالجدل ليس لعبة لفظية ، كلامية ، بل هو عمل دائب ، والا أفلتت الامور من الثوريين . والثورة ليست كلمات، بل هي هذا الجهد الضخم الذي يبدأ برصد الواقع ، ومتابعة هذا الرصد ، ووضع الاهداف المناسبة . واذا تتبعنا موقف لينين من ثورة شباط الى ثورة تشرين ، أدركنا قيمة ما يرشدنا اليه ، أدركنا قيمة الواقع ، ووضعنا الشعارات المتبدلة بسرعة هائلة في موقعها الصحيح (١) ، وأدركنا قيمة الوقت، اذ يصبح التباطؤ في العمل «أشبه بالموت» (٢) . واذا تصبح الثورة متوقفة على يومين أو ثلاثة (٣) . أدركنا أن

(١ و٢) راجع المختارات ١/٢ حول الشعارات ص ٢٥٨ رسالة الى أعضاء اللجنة المركزية ص ٦٢ . ونصائح غائب ص ٥٩١ .

الوقت صعب ، والمهمة صعبة ، ولا يجوز استبدال المجرّد بالمحسوس ، لان هذا خطأ رئيسي ، ومن الاخطاء الاكثر خطراً على الثورة (١)

هنا نصل الى خطأ جديد ، يعكس عدة تصورات وهمية ، مستقاة من الفكر المثالي ، وهو الفكر الذي يتحدث عن الثوابت .

ان اصحابنا يريدون الثبات حتى تتبدل الظروف ، فكأن برنامجهم هو نفسه النظرية العلمية . وهذا يدل على خلطهم بين النظرية العلمية والنظرية الثورية ، خلطهم بين العلم والفلسفة ، ويرشد الى موقع الفلسفة عندهم كأم للعلوم ، أو كتعميم لها أو كتصنيف ، وبما أن الفلسفة والعلم اتحدا على هذا النحو ، أصبح من الضروري عندهم الثبات ، لان الفلسفة يجب أن تكون ثابتة ومطلقة .

العلم يدرس الواقع ، فنصل الى القانون العلمي ، وهذا القانون مشاع لكل الاطراف اليمينية واليسارية . . والماركسية بما هي فلسفة لا تعمم نظريات العلم ولا تصنف العلوم ، والا فانها لن تمتاز عن أية فلسفة أخرى . وانما امتيازها أنها كفلسفة ذات اتجاه ، ذات هدف ، تتبنى بحسبه حقوق الانسان الحقيقية ، وهي تضع بحسب دراستنا عن الواقع الاهداف المرحلية التي تقود الى الهدف العام وهو تحقيق الشيوعية .

مصدر الالتباس ، هو أن تحليل ماركس العلمي تنبأ بسقوط الرأسمالية لتفاقم تناقضاتها ، ودعا نتيجة لذلك العمال ليثوروا ، والسؤال الذي يتبادر : هل هذه النبوءة وتلك الدعوة جزء من التحليل العلمي ، هنا المثير ، فالواقع ، ومن ثمة تحليله ، لا يقولان لنا ثوروا ، وانما هذا القول أمر آخر غير التحليل العلمي ، أمر آخر يعكس هدفة الانسان ، وتناسب التحليل العلمي ، لكنها ليست اياه . فالعلم تحليل للواقع والفلسفة تحليل للاهداف بما يناسب الواقع ، الفلسفة تخطيط .

معنى هذا انه يجب ان نبذل اهدافنا — برنامجنا — مع كل تعديل للواقع ، ولكن هل يجوز ان نرفع كل يوم شعارا ؟ والرد ، هل يجوز ان نرفع شعارا لم تبق له قيمة في الواقع ؟

هذه الفجوة لا يدركها هؤلاء الباحثون عن الثوابت ، فهم يقولون لنتعامل مع النظرية كقانون ثابت حتى يأتي من ينقدها ، وبذلك نؤلف القلوب حول أمر لا يولد البلبلة . بيد أن معنى هذا وترجمته عمليا ، هو وضع برنامج والسير معه بصورة متخلفة ورجعية . معنى ذلك خداع الجماهير ، وجعلها تسير كعميان خلف نظرية لم يبق من مبرر لها . ومعنى ذلك تخلف الماركسيين ، فبدل أن يقودوا الواقع ويسيطروا عليه يصبحوا خاضعين له من دون أية نظرية تقودهم ، وبالتالي يصبحون متخلفين ، والاكثر من هذا ، فان الجماهير ليست غبية حتى تتقبل برنامجا لا يساير الواقع ، واذا كانت تتقبله كفتة حزبية منضبطة ، فهذا لا يعني ان القلق والانقسام والشك لن يتطرق لوعيهم . ان الماركسية بما هي ناقدة وثرورية ، لها المستقبل ، هي المؤهلة لوحدها لتحليل الواقع ، وادراك تبدلاته ووضع البرامج التي تقود الى تحقيق هدفها . **عدا ذلك ستسود الفوضوية ، وستسود التلقائية والعفوية ، وستسود الارتجال .**

وهكذا نرى ان عكس ما يقوله هؤلاء هو ما نصل اليه ، فدعواهم هي التي تعني الفوضى والعفوية . وليس غريبا ان يحارب لينين أمثال هؤلاء في أيامه ، فدائما هناك من يقدر القانون كأمر ثابت ، فيتغافل عن دراسة الواقع ، ويكتفي بترديد الآيات المنزلة ، يكتفي بكسله .

واذا كنا قد بينا ان الماركسية علم العمل وفلسفة العمل ، فان اللينينية في أحد أسسها — كما سوف نبين — تدعو للعمل كبديل عن القول ، ومعنى هذه الدعوة ، هو اليقظة المستمرة ، والرصد العلمي المستمر ، وسرعة التجاوب ، وسرعة تعديل الاهداف المرحلية . معناه ان نملك الواقع ، وأن نصنع التاريخ . معناه ان لا نفهم الماركسية « كمجموعة من القوانين » كفلسفة مطلقة ، بل ان نفهمها كعلم يحلل الواقع في جدله مع الانسان ، وان نفهمها كهدف

نسعى اليه . نفهمها كعمل لا كقول . ولا اعرف كيف سنحدد اهدافنا
ان كنا لا نعرف الواقع وان كنا قد احلنا — جينا — الواقع للقانون
الثابت ؟! (١)

البشر ليسوا الهة ، لذا فعلمهم ناقص ، وعملهم في الوجود ناقص ،
ومن المحال الصعود فوق كل هذا ، بادعاء العلم الثابت ، المطلق ،
الذي يكشف كل الحقيقة .

وهذا وان كان نقطة ضعف ضخمة ، فان اقرارها يشكل دافعا
هاما ، لتجاوز ما هو كائن — علما وتاريخا — ومن دون هذا التجاوز
لا يبقى للانسانية هدف . وادعاء القوانين الثابتة الغاء لهذا التجاوز ،
وقولية للانسانية في اطار ما هو كائن .

ولسنا نبعد كثيرا ، ألم يرهنوا تبدل القوانين لتبدل الظروف ؟
ومن الظروف الا العامل المادي ، وعلى نحو محدد الانتاج ؟

على ماذا يدل كل هذا ؟

ان الواقع هو المعيار وهو المرجع ، ولا قانون ثابت . ان اي
قانون هو فرض ، لا نبحث عنه في الواقع ، لنسجل ما يؤيده ، بل
نحلل الواقع وحده ، ونسترشد بالفرض — منهجا وموضوعا —
لا اكثر .

من هنا تأكيدنا على ان الاساس الثاني للينينية هو تحليل الواقع
لا هذه النتائج .

(١) في بلادنا يحيلون الامور الى عدم التخطيط او فوضاه . بيد ان هؤلاء لا ينتبهون
الى ان التخطيط (وضع البرامج — الاهداف — التشريع ..) لا يكون الا بعد
تحليل الواقع ، ونحن لم نحلل واقعا حتى الان بصورة شاملة (لقد حل هذا الجزء
او ذاك) . فكيف نخطط ؟ وعلى أي شيء نبني الواقع منتف . ان التخطيط دون
تحليل الواقع هو العفوية والارتجال .

اذن في العلم ، لا تطالبنا الليبنية الا بما يأتلف مع العلم ، الا بما يكون به العلم . وهل يكون العلم اذا لم ندرس الواقع المحسوس بخصوصيته وبشموليته ؟ من هنا نستخلص أن ما يلصقه النقاد وأدعياء المعرفة بالليبنية مجرد دعاوي لا أساس لها ، عندما يرون أن الماركسية تقيد العلم بقيود تمنعه من التقدم ، وعندما يرون أن الماركسية تدخل على العلم ما ليس فيه . فالعلم الماركسي انما يطرد العلم الذاتي ، العلم الذي حصر نفسه في حيز ضيق من دون أن يستوعب الا العناصر التي تخدم مصالح رجاله . يطرد هذا ليقيم العلم الصحيح — العلم الانساني .

لكن . . لقد تكررت في النصوص السابقة كلمة دياكتيك كثيرا ، الا يعني هذا أن المنهج الماركسي بحد ذاته قيد على العلم ؟ والا يعني هذا أن الماركسية تفرض على العالم أن يرى الواقع من منظور محدد ؟ السنا ونحن نطالب العالم بأن ينظر الى الواقع نظرة جدلية ، نجبره على أن يدخل الواقع في قالب « فكري » مسبق ، وعلى الأقل أن يبحث عن هذا القالب في الواقع ليجد ما يؤيد دعواه ؟

نعم في الماركسية نجد دعوى الجدل ، على أساس نقض موقف هيجل . ذلك أن الواقع بنفسه جدلي . بيد أن المباحة ترى أن القلب الماركسي انما هو قلب فكري لتفكير هيجل منذ فويرباخ ، أي أنه قلب فلسفي وليس قلبا علميا ، لان القلب العلمي يجب أن يلتزم بالواقع ، بالمحسوس ، بالخاص ، أن نبحت ثم نستخلص المجرّد . لا أن نبحت عن المجرّد في الواقع . ألم يقل أنجلز ولينين وسواهما اننا يجب أن نحلل الواقع لنجد فيه ما يؤيد الجدل وعلى وجه الخصوص ما يثبت التناقض ؟

ضد كل دوغمائية فكرية عن الجدل ، نتابع مع لينين ، موقفه المحسوس ، الرافض لهذه القيود ، الناقد لتصوراتها المثالية . قال لينين :

« اصطدام السيد ميخايلوفسكي على الدوام ، وهو يطالع الكتابات الماركسية « بالطريقة الديالكتيكية » في علم الاجتماع ، و « بالتفكير الديالكتيكي » في حقل القضايا الاجتماعية أيضا (الحقل المقصود الوحيد) ، الخ . وقد تصور لسذاجته (هذا اذا لم يكن ثمة

دافع آخر غير السذاجة) ان هذه الطريقة تقوم في حل المسائل الاجتماعية كلها وفقا لقوانين الثلاثية الهيجلية . ولو أنه أعار الامر انتباها أكثر بقليل ، لكان من المؤكد ، اقتنع بسخافة هذا التصور . ان ما يسميه ماركس وانغلز الطريقة الديالكتيكية — خلافا للطريقة الميتافيزيقية — ليس الا طريقة علمية في علم الاجتماع ، تقوم على النظر الى المجتمع بوصفه جهازا حيا ينطور باستمرار (لا شيئا مترابطا بصورة ميكانيكية ، يتيح بالتالي شتى أنواع التركيبات الاعتبارية بين مختلف العناصر الاجتماعية) جهازا عضويا تتطلب دراسته تحليلا موضوعيا لعلاقات انتاجية تشكل بنية اجتماعية معينة ، ودراسة لقوانين عملها وتطورها « (١) .

اذن لا تطالب الماركسية العالم بأن يحمل ثلاثية هيجل ليدرس الواقع بحسبها انما تطالبه بدراسة التطور الواقعي فحسب . وانتقل لينين ، فحل موقف ماركس وانغلز ، فذكر : « .. انهما لا يشيران بشيء الى ثلاثيات هيجل ، وان كل شيء عندهما يقتصر على النظر الى التطور الاجتماعي بوصفه عملية تطور تاريخية للبنى الاقتصادية الاجتماعية .. » ونقل عن ماركس « ان الطريقة التي طبقها في رأس المال قد أسيء فهمها » . فما يهمله بالدرجة الاولى « انما هو قانون تغير تطور هذه الظواهر ، وانتقالها من شكل الى آخر .. » يهمله « اكتشاف قوانين الظواهر التي يحلها » (٢) .. الخ

اذن ، ومرة أخرى ، لا تطالب الماركسية العالم بحسب طريقتهما أن يقولوا الواقع بحسب ثلاثية هيجل ، لا تطالبه بأن يبحث عن الواقع في القانون (أو الطريقة) الفكرية . بل تطالبه بأن يدرس الواقع المتبدل ليجد قانونه ، فالجدل الماركسي يعني التطور ، لا شكلا فكريا جامدا .

-
- (١) من أهم أصدقاء الشعب عن « (في الادب والفن) » لينين ج ١ ص ٤٢ — ٤٣ ترجمة يوسف حلاق . دمشق ١٩٧٢ . انظر كراسة من هم أصدقاء الشعب ص ٥ . موسكو — التقدم عام ١٩٧٠ .
- (٢) نفس المصدر السابق .

ان ما ينقده الفلاسفة في الماركسية ، ينقده لينين ، ويعتبره سذاجة ، وسخافة . ذلك أنه من الملاحظ منذ تحليلات هيجل أن عملياته مصنعة في تركيباتها ، فهل يجوز أن ننقل هذه العمليات المصطنعة للواقع (وهو ما أسميناه قولبة الواقع) ؟ يرفض الفلاسفة هذا ، ويعتبرونه مأخذا على الماركسية ، بيد أن لينين يعتبره كذلك أيضا ، ويعتبره فوق ذلك سذاجة . فالماركسية بما هي طريقة في الجدل لا تطالب بتطبيق عمليات هيجل الاصطناعية .

وما طرحناه عن قضية المحسوس والمجرد ، وقضية الخاص والعام ، عند لينين ، إلا تأكيدا جازما في منحى هذا الجدل ، بالتزامه المحسوس والخاص . أي بالتزامه الواقع فحسب .

وفي أطروحة لينين عن الجدل (١) ، اهتم ، وركز على ما بينه هيجل سابقا ، في **علاقة العام والخاص** ، ورفع هذه العلاقة ليجعلها محورا أوليا للجدل ، محورا لاقامة جدل خاص حي ، بعيدا عن الاصطناع والقولبة ، باتجاه علم صحيح ، يبعد عن الدوغمائية المجردة ، باتجاه الواقع ، المحسوس والخاص . من دون أن ننسى خلال ذلك ، ان اهتمام لينين هذا ، يستعيد وضع الجدل في تاريخ الفلسفة ، لا كتيار مميز فيها ، بل كإطروحة أساسية في هذا التاريخ كله ، سواء عند من كانوا جدليين أو لم يكونوا .

٣ — هدف الماركسية هو الشيوعية :

مع هذا الأساس الثالث ، ننتقل من أرض العلم الى أرض الفلسفة . والفلسفة بحث في الاهداف وفي الغايات . وما يميز الماركسي هو كونه يؤمن بعقيدة تهدف الى تحقيق الشيوعية ، أي الى تحقيق حقوق الانسان ، العدل والمساواة ، تحقيقا واقعيا ، تهدف الى الغاء استغلال الانسان للانسان ، ومنع سرقة عمل الانسان من قبل فئة مستبدة ، وتهدف الى الغاء الدولة كسلطة مستبدة تستخدم

(١) انظر البحث في دقاتر عن الديالكتيك ص ٢٦١ ترجمة الياس مرقص . دار الحقيقة بيروت سنة ١٩٧١ وأنظر مجموعة الماركسية . ماركس . أنجلز ص ٢٨٦ .

كأداة لاستعباد الفئة العظمى من البشر وفقا لمصلحة القلة المتسلطة على قوى الانتاج . الماركسية كفلسفة تهدف الى ازالة بؤس الانسان وضياعه واغترابه الناتج عن معاملته من قبل المستغلين كآلة أو كحيوان ، على حين أن الآلة والانتاج تتعاطم قيمته فيتأنس ويقود المستعبدين . ان ازالة الاغتراب والضياع بمنع سرقة العمل ، وتحقيق المساواة والعدل وتحرير العامل من عبودية العمل غير الانساني ، يعني استعادة الانسان لانسانيته وتحرير طاقاته المهدورة ، واطلاق حريته ليدع وليظهر الوجه الحقيقي لوجوده كإنسان واعى ، بمعنى ككائن وحيد يعمل بحسب أهداف يعيها ويسعى لتحقيقها .

ان الماركسية ، فلسفة عمل ، مثلما هي علم العمل . ان تحليلاتها العملية تكتشف بنية المجتمع الفاسد القائمة على سرقة العمل . وان تحليلاتها الفلسفية المبنية على نتائج العلم تهدف الى منع سرقة العمل ، وتحرير العامل من استغلال عمله . وهي كفلسفة تهدف بعد تحقيق الثورة ، وبعد ازالة الاغتراب ، تهدف كمثل أعلى الى الوصول بالانسان الى المرحلة التي بها يكون العمل حاجة أولى عنده .

ويوضح ماركس مرحلتين للوصول الى هذا المثل الأعلى . في المرحلة الاولى « ولا يمكن أن يرتفع الحق الى مستوى أعلى من الوضع الاقتصادي للمجتمع ومن درجة الحضارة المساوية له » (١) حيث يكون العمل معيار المساواة في الحقوق . أما في المرحلة الثانية أي « عندما يصبح المجتمع الشيوعي في مرحلة عليا ويتوارى نظام تجزئة العمل الذي أذل الأفراد ، ويختفي معه التناقض بين العمل الفكري والعمل اليدوي ، عندما لا يظل العمل وسيلة للعيش ، ويضحى في حد ذاته ، حاجة الحياة الاولى ، عندما يتزايد تطور الأفراد وتتضاعف قوى الانتاج أيضا ، وتتفجر

(١) نقد برنامجي غوتا وايرفورن : نقد برنامج غوتا: ماركس ص ٢٩:صلاح

زهرة دمشق ١٩٧٤

جميع منابع الثروة التعاونية بغزارة ، حينئذ يمكن تجاوز أفق الحق البرجوازي الضيق نهائيا ، ويستطيع المجتمع أن يكتب على راياته « من كل حسب طاقاته ، ولكل حسب حاجاته ! » (١) .

وهو المثل الاعلى الذي سينميه لينين ، وسيزيده شرحا وتفصيلا ، كما سوف نبين .

ان هذا المثل الاعلى يعني مجتمعا متساويا ، لا استغلال فيه ولا عبودية ، وبتعبير أدق ، يعني مجتمعا دون طبقات . يقول ماركس :

« وان الجديد الذي اعطيته يتلخص في اقامة البرهان على ما يأتي ١ — ان وجود الطبقات لا يقترن الا بمراحل تاريخية معينة من تطور الانتاج ٢ — ان النضال الطبقي يفضي بالضرورة الى ديكتاتورية البروليتاريا ٣ — ان هذه الديكتاتورية لا تعني غير الانتقال الى القضاء على كل الطبقات والى المجتمع الخالي من الطبقات » (٢) .

ان هذا المثل الاعلى ، يحدد هدف الفلسفة الماركسية ، ويصنع أفقها ، كفلسفة انسانية ، انسانية بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، وكبديل عن الفلسفات التي تدعي تبنيها هذه اللفظة قولا ، على حين تنزلق الى تأييد الاستغلال والاستعباد فعلا ، أو على حين تتعقر في عزلة فردية ، تاركة الانسانية للدمار ولشريعة الغاب .

من الشائع القول ان الماركسية من دون أفق ، لقلة ما كتبه ماركس فلسفيا ، اذ كان اهتمامه الاول منصبا على البحث العلمي ، ولما يشيعه الماركسيون المبتذلون عن الموضوعية ، فكان الايمان — نعم الايمان — بمثل أعلى (كثيرا ما يردد لينين هذا التركيب) يتناقض مع الموضوعية ، ويتناقض مع الشيوعية العلمية . ان هذا يعكس قضية الخلط بين ما هو علمي وما هو فلسفي ، ويعكس عدم

(١) المرجع السابق ص ٢٠

(٢) مخنارات : ماركس ، أنجلز . المجلد ٤ ص ١٤٩ رسالة الى يوسف فيديماير

سنة ١٨٥٢ موسكو — دار التقدم

تميز الحدود بين العلم والفلسفة . لذا نؤكد بأن للماركسية واللينينية مثلاً أعلى ، هو هدف فلسفي ، وهو إقامة المجتمع الخالي من الطبقات ، المجتمع القائم على العمل كحاجة أولى ، المجتمع الذي تتحقق فيه الحرية والمساواة والعدل . وأن هذا الهدف لا يتناقض مع العلم ، بل به يصبح للعلم اتجاه ومغزى .

الماركسية كعلم دراسة للواقع ، وقد لا نجد في الماركسية أطروحة أن الواقع حيادي ، أي أنه متعادل القيمة ، وبالتالي فإن البحث العلمي حيادي ومتعادل القيمة ، قد لا نجد ولكن يمكن أن نستنتج هذه الأطروحة من الكتابات الماركسية ، وكحد أدنى ، لا نجد أن مثل هذه الأطروحة تعارض أية فكرة ماركسية .

معنى ذلك أن العلم دراسة حيادية للواقع ، فالنظرية العلمية تصف الواقع ولا تقول لنا أن الواقع يهدف الى تحقيق هذه القيمة أو تلك ، وإنما تقول لنا هذا الفلسفة ، التي هي بحث في الاهداف كما ذكرت .

ان القول بعدم حياد الواقع والعلم قيميا ، أرث مثالي ، وضعته الفلسفات التي جعلت الوجود غائيا ، لكونه يمثل لارادة غيبية علوية أو مبنوثة فيه كارادة أو كقوة حيوية تسير الوجود وفق مخطط مسبق نحو غايات مطلقة محددة منذ الازل . ومنذ الفلسفة اليونانية نجد هذا الخلط أو الاتحاد بين الوجود والغائية ، من هنا اكتساب الوجود معنى ، أي كونه قانونا فكريا وأخلاقيا . ومن هنا كون البحث الفلسفي في الوجود لا يكتشف الوجود فحسب بل ويكتشف غائيته ، لا يكتشف النظام بل ويكتشف القيمة متحدة بهذا النظام .

ولدى تقدم العلم ووصوله الى قوانين الوجود الطبيعية والرياضية ، عزل النظام عن القيمة وعن الغائية ، وقدم لنا الوجود مجردا ، من هنا نحيب الفلسفات الحديثة التي لا تزال غارقة في الفهم القديم للمشكلة الانطولوجية ، وتكرارها الحديث عن العبث واللامعنى . ان مثل هذا الحديث لم يستوعب التبدل الجذري في المشكلة الانطولوجية ، ولذا ينتحب على المعنى (القيمة — الغائية) التي فقدت من الوجود . من دون أن يقدر على تجاوز هذا الاقرار ،

الى البحث عن القيمة والفائدة ، والتي غدت محمولا وحيدا للانسان ،
بما هو انسان هادف . من هنا الانفصال الجذري بين الفلسفة
والعلم ، ومن هنا ، من الانسان يعود الالتقاء بين الفلسفة والعلم .
العلم يقدم بحثا مجردا ، حياديا عن الواقع الحيادي ، والفلسفة
تقدم الهدف المناسب بحسب المثل الاعلى ، وبفعل الانسان وعمله
يصبح العلم ذا اتجاه وبفعل الانسان وعمله يصبح الوجود ذا اتجاه ،
بمعنى انه يصبح من أجل الانسان بعد أن كان من أجل ذاته (في
ذاته) . وهو ما سنعالجه في الفصل القادم .

اذن يمكن أن نقول أن أطروحة حياد الواقع والبحث العلمي
وأطروحة أن الفلسفة بحث في الاهداف والقيم ، بحث في المثل الاعلى ،
لا تتعارض مع الماركسية . بل انها جزء من الماركسية تحدد أفقها
ومسارها ، مثلما تحدد امتيازها كفلسفة أصيلة . (١)

وبالعكس ان كون الواقع ذا اتجاه غائي وقيمي ، يؤسس
الفلسفات المناهضة للماركسية ، ويؤسس دعوات الاستسلام
والرضا بالواقع .

ان عدم وضوح هذا ، ولد التشويه الذي أصبح قانون ايمان ينص
على أن البنى الفوقية تعكس البنى التحتية . وهنا بالذات نمس
الاساس النظري لهذا التشويه ، فالواقع ، لا يقول ان هطول المطر
لاتبات الزرع ، ولصنع الخبز ، ولاسعاد الجماعة الفلانية ، ولشفاء
الجماعة الاخرى . والواقع لا يقول أن نمو الرأسمالية يحتاج الى
سرقة العمل ، واغتراب الانسان ، وتحطيم انسانيته ، بل يقدم
الواقع نظرية مجردة خالية من الغايات والقيم ، ولذا فان انعكاسه
الوحيد هو هذه النظرية العلمية المجردة الحيادية . وانما الانسان

(١) ان نشر الفكرة المطلقة الهيجلية في الوجود ، انما هو عمل الماركسية
الشائعة ، ولذا فان هذه الماركسية لا تقبل حياد المادة ، بل تراها غائية مثلما كان
هيجل قد نظر . بيد أن الماركسية (في رأس المال . وهنا في لينينية الواقع والعمل)
لا تتناقض مع حيادية الوجود . فالغايات — كما ذكر ماركس في رأس المال — انسانية
وبفعل الانسان غائي ، وبهذا يمتاز بما هو انسان .

(الجماعات ، الطبقات ..) تضع الاهداف لصالحها وبما يتناسب مع النظرية العلمية . وهذه الاهداف متنوعة ، وذات امكانيات مختلفة ، فينشأ الصراع وتسيطر القوى الاكثر التزاما بالواقع ، والاكثر تنظيما ووعيا ، وقوة ، مستعبدة القوى الاخرى .

لقد نقلت رأي لينين الذي يوضح أن الوعي (الاهداف والقيم) لا تتولد عن الواقع ، لان الواقع يولد العفوية فحسب ، أما الوعي فهو خارجي يضعه المثقفون . معنى هذا ان البنى التحتية تولد العفوية ولا تولد البنى الفوقية . فأى بنية تحتية أو أى نظام اقتصادي يقول لنا أن الشيوعية ضرورية ؟ ان البنية توضح ما هو كائن لا ما يجب أن يكون . والتنبؤ العلمي لا يوضح أهدافا ، بل يوضح مسار الكائن . أما الفلسفة فترسم ما يجب أن يكون لا ما هو كائن ، والتنبؤ الفلسفي يوضح الاتجاه بعد وضع الاهداف ولا يوضح مسار الواقع . وانما الشيوعية هدف فلسفي لا نتيجة علمية ، ومن هنا تكرر الحديث عنها عبر تاريخ الانسانية ، على اشكال مختلفة ، لتشير الى أسباب اغتراب الانسان (الملكية الفردية) ومحددة طريق الخلاص بوضع أهداف شتى لسعادة الانسان ، أولها الغاء هذه الملكية .

بذلك نحدد الخط الفاصل بين العلم والفلسفة . العلم بما هو قراءة حيادية للواقع الحيادي . والفلسفة بما هي تحديد للاهداف ، سعيا وراء الكمال ، طلبا للكمال ، طلبا للمثل الأعلى .

الشيوعية ، مثل أعلى ، على الارض ، مثل أعلى للبشر كلهم ، مثل أعلى يطلب منع الاستعباد ومنع سرقة العمل ، ويطلب العدل والمساواة الحقيقيين . غايتها الحرية الانسانية ، الحرية المبدعة ، وقد غدا العمل حاجة أولى ، لا حاجة دنيا تبغي اشباع المعدة . الشيوعية فلسفة انسانية ، متفائلة ، غايتها مستقبل الانسان .

فهل هي كما يدعون فلسفة ضيقة الافق ، بل ومن دون افق ؟ انها لم تحصر نفسها عند أشخاص فرديين ، خصت نفسها لهم ، على سبيل انهم عظماء ، بل وجهت نفسها لكل الاكثرية المسحوقة . وهي لم تحدد أهدافا سفلية ، بل حددت مثالا أعلى ، يحقق

انسانية الانسان ، بما هو حامل للاهداف ، وبما هو حر ومبدع .

ولم تغلق نفسها على آفاق جزئية . اذ متى ستتحقق الشيوعية ، ومتى ستستطيع الغاء العبودية والاستغلال على كل الارض ؟! والثورة ، ليست الا بداية لاعادة التنظيم ، واعادة الوعي . بل والعودة الى الجدل الصحيح بين الانسان والوجود ، فمتى ستتحقق حرية الانسان تجاه الانسان وبعد الثورة ؟ ومتى ستتحقق حرية الانسان تجاه الطبيعة وبعد الوصول الى الشيوعية ؟!

لقد حاربت الماركسية ما هو مطلق في المثالية ، لكون هذا المطلق وهم يتستر على الواقع ، ولكونه نقيض العلم ، ولكونه .. الخ .. بيد أننا بعيدا عن المثالية نتساءل ما الشيوعية ، ما هذا المثل الاعلى ؟ ما العدالة ؟ وما المساواة ؟ السنا كلنا وصلنا الى مرحلة من العدل والمساواة ، وجدنا نقصا ، فطلبنا الاكمل لتحقيق مزيد من العدل والمساواة ؟ ألا يجوز أن نقول أن هذا المثل الاعلى الماركسي ، هو المطلق (بما هو محمول فكري عند الانسان ، بما هو هدف مطلق يسعى اليه الانسان) ؟ ألا يجوز ؟!

ان الشيوعية ، كمثل اعلى ، هي بديل ما تطرحه الفلسفات الاخرى عن الاوثان ، والالوهام .

والفروق الاساسية ، هي في كون الماركسية لا تقدم كلاما وخيالا ، بل **مرشدا فلسفيا** (كما قدمت مرشدا علميا) وهي تضع اهدافها المرحلية بما يتناسب مع الواقع . وكذلك هي في كون الماركسية لا تقدم مثلا اعلى فرديا ، بل مثلا اعلى جماعيا . وكذلك هي في كون الماركسية تربط الهدف بالعمل الثوري ، لا بالرؤيا او بالرؤية او بالنشوات الصوفية او بالاتجاه الوهمي . فالطريق الى المثل الاعلى طويل ، وهو لا يتحقق دفعة واحدة الا بالوهم وبالخيال ، وانما يتحقق باعتباره مرشدا فلسفيا للتخطيط ، مرشدا يدلنا على ما تستطيعه الانسانية عبر الواقع ، فنشتق اهدافا جزئية ، تلغي الاخطاء ، وتدفعنا نحو وضع صحيح ، فوضع اصح .. وهلم جرا . الى ما لا نهاية له ، لان الكمال المطلق يظل حافزا مستمرا لتجاوز ما هو كائن بصورة دائمة . فهي فلسفة منفتحة على افاق شاسعة ،

تقيض الدعوات المنفتحة على الوهم والخيال قولاً ، والمنغلقة على الواقع البائس فعلاً .
أين لينين من كل هذا ؟ :

« ينبغي أن نحلم » . ويتابع بشكل ساخر مفترضاً الاعتراضات الدوغمائية المهددة والتي صاغها بشكل أسئلة توجه إليه : « أجب من فضلك ، هل يحق لهيئة تحرير مستقلة أن تحلم دون أن تستأذن في ذلك لجان الحزب ؟ » و « هل يحق لماركسي أن يحلم بوجه عام إذا كان لمينس أن البشرية في رأي ماركس — تضع نصب عينها على الدوام أهدافاً ممكنة وأن التاكثيك هو سير نحو — المهام التي تنمو مع نمو الحزب ؟ »

وشعر بالقشعريرة تسري في بدنه لهذه الاسئلة الرهيبة ، ويلجأ الى بيسارييف ليرد على تلك الاسئلة عن الحلم والحقيقة :
« ليست جميع الخلافات واحدة . اذ يمكن أن يسبق حلمي مجرى الاحداث الطبيعي ، أو يمكن أن تسير في اتجاه لا يمكن أن يفضي اليه سير الاحداث الطبيعي بحال من الاحوال » .

« في الحالة الاولى لا يسبب الحلم أي ضرر ، بل قد يشجع ويشدد عزيمة الانسان الكادح . . . ليس في مثل هذه الاحلام ما يمكن أن يفسد أو أن يشل القوة العاملة ، بل العكس بالعكس . فلئن كان الانسان محروماً تماماً من ملكة الحلم على هذا الشكل ، لئن كان لا يستطيع أن يستبق مجرى الاحداث أحياناً وأن يتصور العمل الذي بدأ به لتوه جاهزاً في صورته الكاملة النهائية ، فعندئذ لا أستطيع أن أتصور بوجه من الوجوه الدافع الذي يدفع الانسان الى الشروع بعمل جسيم متعب في ميادين الفن والعلم والحياة العملية والى الدابحتى انجازه . . . أن الخلاف بين الحلم والحقيقة لا يسبب أي ضرر ، على أن يكون الشخص الحالم صادق الايمان بحلمه وعلى أن يتأمل الحياة بانتباه ويقارن بين ملاحظاته والقصور التي بينها في الهواء ، وعلى أن يعمل بوجه عام وبصورة وجدانية على تحقيق حلمه . فعند وجود التماس بين الحلم والحياة تسير الامور على ما يرام » (١) .

ماذا يقصد لينين ؟

انه يضع الحلم معاكسا للاهداف الممكنة ، وللتكتيك المرحلي اليومي والحزبي ، بمعنى اخر يضع الحلم فوق الاهداف المرحلية ، وبذلك فالحلم هو الهدف العام ، أو المثل الاعلى ، والايمان بهذا المثل ، لا يسبب ضررا ، وليس ضد الموضوعية ، لانه يشدد عزيمة الانسان ، بما هو دافع ، ومحرض ، يدفع للعمل ، ويحرض لتجاوز الواقع . على أي نحو ؟ لا يحدد لينين الا شرط التماس بين الحلم والحياة ، كيف ؟ أضيف : التماس يكون بين الحلم أو (المثل الاعلى) والحياة (أو الواقع) عبر الاهداف المرحلية ، عبر الاهداف الممكنة والتكتيك المرحلي اليومي والحزبي ، والمشتق من المثل الاعلى ، والمناسب للواقع .

هل قفزت قفزة وهمية من الحلم الى المثل الاعلى ؟ لا . لنرى حلم لينين أو لنرى مثله الاعلى .

تحت عنوان : « اعلان حقوق الشعب الشغل والمستثمر » نجد قرارات الجمعية التأسيسية ، (الغاء الملكية ، الرقابة العمالية ، فرض العمل الالزامي ... الخ) المقررة نتيجة لكون هذه الجمعية أخذت على عاتقها المهمة الاساسية التالية :

« القضاء على كل استثمار للانسان من قبل الانسان ، ومحو انقسام المجتمع الى طبقات محوا كليا وسحق مقاومة المستثمرين سحقا لا رحمة فيه ولا شفقة ، وتنظيم المجتمع على أساس اشتراكي ، وانتصار الاشتراكية في جميع البلدان . » (١)

وعندما تحدث عن بناء الاقتصاد مع الفلاحين ، واعادة البناء مرات عديدة لاقامة الاتصال بين الصناعة والزراعة والعمل الذي يقوم به كل فلاح ، بين ضرورة ايضاح هذا الاتصال ليرى الفلاحون الصلة بين حياتهم الشاقة اليوم « وبين العمل الذي يجري في سبيل المثل الاشتراكية البعيدة » (٢) .

(١) المختارات ٢/٢ ص ٩٠ اعلان حقوق الشعب الشغل والمستثمر (١٩١٨)

(٢) المختارات ٢/٣ ص ٣٤٧ المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي الروسي (١٩٢٢)

وفي مكان اخر بين ان المساواة تعني القضاء على الطبقات ، على حين ان الديمقراطية لا تعني الا المساواة الشكلية ، واضاف :
 « فما أن تحقق مساواة جميع أعضاء المجتمع حيال تملك وسائل الانتاج ، أي المساواة في العمل ، المساواة في الاجور ، حتى تطرح أمام البشرية لا مناص مسألة السير الى الأمام ، من المساواة الشكلية الى المساواة الفعلية الى تحقيق قاعدة : « من كل حسب كفاءته ، ولكل حسب حاجاته » ونحن لا نعرف ولا يمكننا أن نعرف عن طريق أية مراحل وأية تدابير عملية ستسير البشرية نحو هذا الهدف الأعلى » (١)

ويفسر عندما يتعرض « للعدالة » :
 « أن العدالة بنظره (بنظر بيشخونوف) ليست سوى كلمة جوفاء ، ولكنها ليست كذلك بنظر انصاف البروليتاريين واغلبية البرجوازيين الصغار في المدن والارياف ، الذين انهكتهم الحرب واذاقتهم ألوان العذاب ... »

« العدالة كلمة فارغة ، يقول المثقفون والدجالون المستعدون لأن يتجلببوا بجلباب الماركسية لهذه الحجة النبيلة وهي انهم « تأملوا دبر » المادية الاقتصادية »

« ان الافكار تغدر قوة حين تستولي على الجماهير » ... (٢)

وكتب عن المرحلة القادمة ما يلي :
 « ... ولكن ليس العنف وحده ، ولا العنف بالدرجة الاولى ، هو الذي يشكل جوهر الديكتاتورية البروليتارية . ان جوهرها الرئيسي يكمن في روح التنظيم والطاعة الذي تتحلى به فصيلة الشغيلة التقدمية وطليعتها وقائدها الوحيد ، البروليتاريا . وهدفها انشاء الاشتراكية ، ومحو انقسام المجتمع الى طبقات . وتحويل جميع اعضاء المجتمع الى شغيلة ، وازالة كل اساس لاستثمار الانسان للانسان . وهذا الهدف ، لا يمكن بلوغه دفعة واحدة ، ينبغي لهذا الغرض مرحلة طويلة نوعا ما للانتقال من الرأسمالية

(١) المختارات ١/٢ ص ٤٧٩ الدولة والثورة (١٩١٧)

(٢) المختارات ١/٢ ص ٥٧٦ هل يحتفظ البلاشفة بالسلطة (١٩١٧)

الى الاشتراكية ، لان اعادة تنظيم الانتاج امر صعب ولانه يقتضي بعض الزمن من اجل اجراء تغييرات جذرية في جميع ميادين الحياة ، ولانه لا يمكن قهر القوة الهائلة الكامنة في عادة ادارة الاقتصاد بالطريقة البرجوازية الصغيرة والبرجوازية ، الا بنضال عنيد طويل النفس » (١) .

وكتب عن العمل الجديد الآتي :

« ان العمل الشيوعي ، بأضيق معنى الكلمة ، بأدقه ، انما هو العمل المبذول مجانا في صالح المجتمع ، العمل الذي لا يبذل بوصفه فريضة معينة ، ولا للحصول على حق في بعض المنتجات ، ولا وفق معدلات قانونية معينة سلفا ، انما هو عمل طوعي مبذول خارج كل معدل ، دون توقع اي مكافأة ، دون الاتفاق على مكافأة ، عمل مقرون بعادة العمل من أجل الجماعة وبالشعور (الذي غدا عادة) بضرورة العمل في صالح الجماعة - عمل يستجيب لحاجة من حاجات الجسم السليم .

« وبديهي للجميع اننا ، - اي مجتمعنا ، نمطنا الاجتماعي - لا نزال بعيدين جدا عن تطبيق هذا العمل تطبيقا واسعا ، جماهيريا فعلا » (٢) .

ولعل كتاب « الدولة والثورة » افضل ما شرح المثل الاعلى كما تصوره لينين انطلاقا من ماركس وانجلز ، لذا نقتطف منه بعض ما يوضح ذاك المثل :

الدولة اداة قمع ، ظهرت مع انقسام المجتمع الى طبقات ، لتستخدم من قبل السلطة لصالح الطبقة المستعبدة ضد الطبقة المستعبدة . ولذا فانه اذا زالت الطبقات ستزول الدولة بالضرورة . الثورة العمالية ستقضي على الدولة البرجوازية ، وبعد تنظيم المجتمع تنظيما جديدا ستضمحل الدولة . (٣)

(١) مجموعة الماركسية . ماركس . انجلز ص ٥٤٠ « تحية الى عمال البحر »

(٢) المختارات ١/٣ ص ٤٦٢ « من تدمير النمط الزمن الى ابداع النمط الجديد » (١٩٢٠)

(٣) المختارات ١/٢ ص ٣٩٠ الدولة والثورة (١٩١٧)

ان آلتى الدولة هما الدواوينية والجيش الدائم ، وهما طفيليان على جسد المجتمع يسدان مسام الحياة . ولذا فان الثورة لن تحسن الآلة بل ستكون مهمتها تحطيمها والقضاء عليها (١) .

ولكون هذا لا بد من الاعتراف بالنضال الطبقي ، وبديكتاتورية البروليتاريا التى تقود مرحلة الانتقال ، وخلال هذه المرحلة تنزع عن الوظائف كل طابع مميز ، وينتخب الموظفون ، وتنقص أجورهم لتعادل اجرة العامل . ذلك ان الغاء الدواوينية دفعة واحدة طوباوية . (٢) .

« نحن لسنا طوباويين . نحن لا نحلم بالاستغناء دفعة واحدة عن كل ادارة ، عن كل خضوع . فهذه الاحلام الفوضوية الناشئة عن عدم فهم مهام ديكتاتورية البروليتاريا هي غريبة تماما عن الماركسية ولا تفعل في الواقع غير تأجيل الثورة الاشتراكية الى ان يصبح الناس غير ما هم عليه . » (٣) .

والكومونة هي البديل عن الدولة (٤) . لكنها شكل من اشكال الدولة ، وعلى سبيل المثال سيبقى التاجير والاستئجار ، وهذا من مهمة الدولة الجديدة ، اما توزيع المساكن دون مقابل ، فيقتـرن باضمحلال الدولة (٥) . فالغاء الدولة هدف نهائي يمر عبر ضرورة الدولة البروليتارية في زمن محدد (٦) .

ان دولة البروليتاريا تنظم الطبقة المظلومة لتقمع الطبقة الظالمة ، كي تخلص البشرية من عبودية العمل المأجور ، وكى تمنع بالقوة سيطرة تلك الطبقة . من خلال ذلك تتأسس ديموقراطية الاكثرية من الشعب ، ديموقراطية الفقراء ، لا الاغنياء . وعندما يتلاشى الظالمون ، عندما تنعدم الطبقات وتزول الدولة يمكن الحديث عن الحرية ، وتحقق الديموقراطية كاملة ، لكن عندها تـضمحل الديموقراطية شيئا فشيئا لان الناس « يعتادون شيئا فشيئا مراعاة القواعد الاولى للحياة في المجتمع ، القواعد المعروفة منذ قرون والتي

(١) حتى (٦) : المختارات ١/٢ الدولة والثورة ص ٤٠٢ - ٤٠٧ - ٤١٨ -

- ٤٢٣

(٣) ص ٤٢٣ (٤) ص ٤٣١ (٥) ص ٤٣٤ (٦) ص ٤٣٦

كررت الوف السنين في جميع الكتب ، يعتادون مراعاتها دونما عنف
دونما قسر ، دونما خضوع ، بدون هذا الجهاز المعد خصيصا للقسر
والمسمى بالدولة » (١) .

القمع ضروري في مرحلة الانتقال ، اما عندما تحل الشيوعية ،
لا يبقى احد ينبغي قمعه . « نحن لسنا بخياليين ، ونحن لا ننكر
ابدا امكانية وحتمية وقرع مخالفات من افراد كما لا ننكر ضرورة
قمع مثل هذه المخالفات . ولكن هذا الامر لا يحتاج اولا الى آلة
خاصة للقمع ، الى جهاز خاص للقمع - فالشعب المسلح نفسه يقوم
به ببساطة ويسر . . . » (٢) .

وبصدد المستقبل هناك مرحلتان ، في المرحلة الاولى (الطور
الاسفل) من المجتمع الشيوعي تكون وسائل الانتاج ملكا للمجتمع
لكله ، وكل عضو يعمل ، وبحسب عمله ينال كمية من البضائع . وفي
هذا يطبق الحق بالتساوي ، لكن لا زلنا مع عدم المساواة ، لاننا
نطبق مقياسا واحدا على اناس مختلفين وليسوا في الواقع متشابهين
ولا متساوين ، ولذا فان هذا الحق المتساوي هو اخلال بالمساواة
وهو غبن . من هنا فان هذه المرحلة لا تعطي المساواة ، انها تلغي
استثمار الانسان للانسان . من دون ان تلغي الغبن الذي يتلخص
بتوزيع مواد الاستهلاك حسب العمل لا حسب الحاجة ، او يتلخص
بمن لا يعمل لا ينبغي ان يأكل .

اما في الطور الاعلى ، فالدولة مضمحلة ، والحرية مستقرة .
الحاجة الى العمل اولى متطلبات الحياة ، والتضاد بين العمل الفكري
والجسدي زال ، والقاعدة هي من كل حسب كفاءاته ولكل حسب
حاجاته . اي ان العمل يصبح طوعيا ، فتنطور القوى المنتجة
تطورا هائلا (٣) .

ان اضمحلال الدولة مؤكد وحتمي . لكن هذا لا يستغرق وقتا
طويلا ، ونحن لا نستطيع معرفة سرعة التطور ولا نوعيته . لذا لا

(١) نفس المرجع السابق ص ٤٦٨ (٢) نفس المرجع السابق ص ٤٧٠ وراجع
الحرب الاهلية في فرنسا لماركس ، ونهاية مقدمة انجلز له .
(٣) المرجع السابق ص ٤٧٠ - ٤٧٦ .

نستطيع تحديد الاهداف على نحو ادق واكثر تفصيلا .

ماذا نستنتج من كل هذه النصوص ؟

ان الهدف العام ، المثل الاعلى ، الشيوعية ، ليس مجرد هدف آني ، افقه ضيق ، ومحصور بتلبية حاجات سفلية ، بل هو هدف ذو افق واسع جدا ، لا نصل اليه بين يوم وآخر ، بل هو دافع ومحرض لتجاوز مستمر باتجاه الكمال حيث ستسود العدالة والمساواة الحقيقيين .

ان الهدف العام يختلف عن الهدف المرحلي ، ليس اياه ، بل وان الهدف المرحلي يوضع بحسب الهدف العام ، وباتجاهه . يشق منه ، ليكون قوة تستولي على الجماهير .

والهدف العام البعيد ، وان كان بعيدا ، فهو ليس كلمة فارغة الا عند من يتأملون « دبر » المادية باسم الموضوعية ، والا عند من يقلدون برنشتين وانتهازيته مكررين كلماته : الهدف العام لا شيء .

لكن اليس معنى هذا الايمان بمثل هذا المثل الاعلى ، بمثل هذا الحلم ، هو الطوباوية الخيالية المكروهة جدا ؟!

الطوباوية اصلا كما ذكر لينين : لا - مكان . اي مكان لا وجود له ، خيال ، فكرة وهمية . والطوباوية في السياسة « رغبة لا يمكن تحقيقها اطلاقا ، لا الآن ، ولا مستقبلا ، رغبة لا تستند الى القوى الاجتماعية ، ولا يدعمها نمو القوى السياسية والطبقية وتطورها » (١)

وقد كان الاشتراكيون الطوباويون القدامى يتصورون انه يمكن بناء الاشتراكية باناس من نوع آخر ، وانهم سيربون في البدء اناسا طبيين ، نظيفين ، متعلمين بشكل رائع ثم يبنون الاشتراكية بهم . وكنا نضحك دائما ونقول ان هذه لعبة ومن شأنها تسلية أنسآت مقزّمات وليست سياسة جدية . « (٢) »

(١) مجموعة في الادب والفن ج ١ ص ١٨٤ طوباويتان (قبل ١٩١٢)

(٢) المرجع السابق ح ٢ ص ٩٥ نجاحات السلطة السوفياتية ومصاعبها (١٩١٩)

وطوبائية الاشتراكيين السابقين على ماركس « تكمن في انهم حلموا بتغيير العالم المعاصر تغييرا سلميا عن طريق الاشتراكية ، دون ان يحسبوا حسابا لمسألة اساسية كمسألة الصراع الطبقي واستيلاء الطبقة العاملة على السلطة السياسية واسقاط سيطرة طبقة المستغلين ٠٠ (١) .

لذا يفرض لينين اعتبار حلمه طوباوية ، لانه يبني هذا الحلم على نقيض بناء الطوباويين . قال :

« من السهل ، من وجهة النظر البرجوازية ، اعلان مثل هذا النظام الاجتماعي « طوباويا محضا » والسخرية من الاشتراكيين لانهم يعدون كل مواطن بانه سيحقق له ان يأخذ من المجتمع بدون أية مراقبة لعمله أي مقدار من السكاكر او السيارات او أجهزة البيانو وغير ذلك . وبمثل هذه السخريات تتملص اكثرية « العلماء » البرجوازيين حتى الان مظهرين بذلك جهلهم ودفاعهم المغرض عن الرأسمالية ٠٠٠ (٢) .

« الجهل ، لانه لم يخطر لاي اشتراكي ببال ان « يعد » بحلول الطور الاعلى من تطور الشيوعية . اما فيما يخص نبوءة الاشتراكيين العظام بحلولها فهي تقترض انتاجية عمل غير انتاجية العمل الحالية وانسانا غير الانسان الحالي التافه الذي يستطيع ٠٠٠ ان يبدد « لوجه الشيطان » الثروات العامة ويطلب المستحيل . »

وهذا التنبؤ ، هذا الحلم ، هذا المثل الاعلى ، هذا الهدف الاعلى ، ان لم يكن طوباوية ، فهو ليس انعكاسا للبنية التحتية . وفي تلخيص لينين لميتافيزيا ارسطو ، نقد لهذا التبسيط ، وايضاح للحلم ، وارجاع للبدء الذي بدأنا به . ارجاع لفهم بيساريف عن الحلم . كتب لينين :

« حين الفهم (الانساني) يتناول الشيء الفردي ، يسحب منه

(١) المرجع السابق ح ١ ص ٢٠٠ في التعاون (١٩٢٣)

(٢) المختارات ١/٢ ص ٤٧٦ الدولة والثورة .

صورة (مفهوم) ، هذا ليس فعلا بسيطا ، مباشرا ، ميتا ، ليس انعكاسا في مرآة ، بل فعل معقد ، ذو وجه مزدوج ، منكسر - متعرج فعل يتضمن امكانية الطيران الخيالي خارج الحياة ؟ واكثر من ذلك ، انه يتضمن امكانية تحويل المفهوم المجرد ، الفكرة (تحويلا لا يدركه الانسان ، لا يعيه) الى خاطر خيالي (في تحليل اخير = الله) . اذ ، في التعميم الابطسط ، في الفكرة العامة الاكثر بدائية الى « طاولة » بوجه عام (ثمة قسط ما من الخيال .) والعكس بالعكس : من الحماسة ان ننفي دور الخيال حتى في العلم الاكثر صرامة ودقة . (انظر بيساريف عن الدور المفيد للحلم كدفع الى العمل وعن الاحلام الفارغة الضارة) (١) .

هكذا ، اذن ، فهذا المثل الاعلى ، ليس انعكاسا ، ولا هو بالطوباوية . ونضيف الان انه ليس دعرة مثالية . ان الدعوات المثالية السابقة هدفت الى خداع الجماهير بالوعظ لتغطية مصالحها . ذكر لينين : لو ان البديهييات الهندسية كانت تصدم مصالح الناس ، لسعوا بكل تأكيد الى دحضها . (٢) . وذكر ايضا « لقد كان الناس وسيظلون ابدا في حقل السياسة ، اناسا سذجا ، يخدعون (الآخرين) ويخدعون انفسهم ، ما لم يتعلموا استشفاف مصالح هذه الطبقات او تلك وراء التعابير والبيانات والوعود الاخلاقية والدينية والسياسية والاجتماعية » . (٣) .

لهذا حارب لينين هذه الدعوات وبين زيفها وفي الوقت نفسه كشف عن طابعها الطبقي والمصلحي . وفي بحثه الهام « مهمات منظمات الشباب » تعرض لينين للحد

(١) الدفاتر الفلسفية ج ٢ ١٥١ ترجمة المياس مرقص . دار الحقيقة بيروت عام ١٩٧٤ . قوله (في التحليل الاخير : الله) تصحيح لتصوير فيورباخ . هذا ما دعاني الى طرح سؤال فيما سبق هل يجوز أن نقول أن المثل الأعلى هو المطلق ؟ ولم أجب ، لان بحث هذا خروج عن طبيعة هذه الدراسة . وسوف نستعيد الموضوع من البدء مع فيورباخ (انظر : نحو فلسفة العمل) للمؤلف

(٢) المختارات ١/١ ص ٨٥ الماركسية والنزعة التحريفية (عام ١٩٠٨)

(٣) المختارات ١/١ ص ٨٣ مصادر الماركسية الثلاثة . . (عام ١٩١٣)

الفاصل بين المثل الاعلى (الاهداف والقيم : الاخلاق) الشيوعية والمثل الاعلى المزيف للمثاليات الكاذبة والخادعة . قال في خطابه :

« ولكن ، هل ثمة اخلاق شيوعية ؟ هل ثمة سلوك شيوعي ؟ أجل ، بكل تأكيد . وغالبا ما يزعم ان ليس لدينا اخلاق خاصة بنا ، وفي معظم الاحيان تتهمنا البرجوازية ، باننا ، نحن الشيوعيين ، ننكر كل اخلاق . وتلك طريقة لتشويه الافكار لذر الرماد في عيون العمال والفلاحين .

« باي معنى ننكر الاخلاق وننكر السلوك ؟

« بالمعنى الذي تبشر به البرجوازية ، التي كانت تشتق من وصايا الله . وبهذا الصدد ، نقول ، بالطبع ، اننا لا نؤمن بالله ، ونعرف جيدا جدا ان رجال الدين والملاكين العقاريين والبرجوازية كانوا يتكلمون باسم الله لكي يؤمنوا مصالحهم كمستثمرين . كذلك كانوا لا يشترطون هذه الاخلاق من قواعد السلوك ومن وصايا الله ، وانما كانوا يستخلصونها ايضا من جمل مثالية او نصف مثالية ، تعني دائما شيئا يشبه كثير الشبه وصايا الله .

« ان كل اخلاق من هذا النوع ، مستقاة من مفاهيم مفصولة عن الانسانية ، مفصولة عن الطبقات ، ان كل اخلاق كهذه ننفيها وننكرها . ونقول انها تخدع العمال والفلاحين وتغشهم ، وتحشوا ادمغتهم حشوا ، وذلك في صالح الملاكين العقاريين والرأسماليين . « اننا نقول : ان اخلاقنا خاضعة تماما لمصالح نضال البروليتاريا الطبقي . ان اخلاقنا تنبثق من مصالح نضال البروليتاريا الطبقي . « ... اننا لا نؤمن بالاخلاق الابدية ، واننا نفصح جميع القصص والحكايات الكاذبة الملفقة حول الاخلاق . ان الاخلاق تتج للمجتمع الانساني ان يرتفع الى اعلى ، ان يتحرر من استئثار العمل ... (١) »

هنا تدخل الدوغمائية لتفهم الامر فهما ميكانيكيا ، فتتصور ان القيم انعكاس للواقع . وتتخيل ان لكل بنية نوعا من القيم . فيتحول تاريخ الانسانية الى حلقات منفصلة ، من دون اي رواسب مفيدة او

(١) مجموعة الماركسية . ماركس . أنجلز ص ٦٢٩ - ٦٣٥ مهمات منظّمات الشباب (١٩٢٠) أنظر أيضا المختارات ٢/٣ ص ٧١ - ٧٥

غير مفيدة يتركها القديم في الجديد ، لذا نجد من الهام ان ننهي بحثنا هذا عن الهدف الاسمى للشيوعية بحديثنا عنه ككتويج للتراث الانساني ، يحتفظ بالبواقي الجيدة (علما ، ثقافة ، قيما) ويلغي البواقي السيئة ..

كتب لينين :

« لقد اكتسبت الماركسية اهميتها التاريخية العالمية برصنفها ايدولوجية البروليتاريا الثورية لان الماركسية لم تطرح جانبا على الاطلاق اثنى مكتسبات العهد البرجوازي بل ، بالعكس ، استوعبت واعادت صياغة كل ما كان ذا قيمة في تطور الفكر البشري والثقافة البشرية خلال اكثر من الفي سنة .. » (١) .

وبصدد العلم كتب لينين :

« ان الاشتراكية تستحيل دون تكنيك الرأسمالية الكبير ، الموضوع وفقا لآخر كلمة في العلم الحديث .. » (٢) .

« .. فان » اختصاصيا في العلم والتكنيك « ، وان برجوازيا ، ولكنه يعرف العمل ، اثنى لنا عشر مرات ، في هذا الحال ايضا ، من شيوعي متبجح ، مستعد لان يدبج الموضوعات في اي لحظة من النهار والليل ، ويتقدم « بالشعارات » ، ويقترح التجريدات المحضة » (٣)

وبصدد الاخلاق كتب تحت عنوان : الشعار العام للظرف الراهن :

« احسب حساباتك بعناية ووجدان ، ادر الاقتصاد بحكمة ، لا تدع نفسك تنساق وراء الكسل ، لا تسرق ، تقيد باشد الطاعة صرامة في العمل ، ان هذه الشعارات التي سخر منها بحق البروليتاريون الثوريون حين كانت البرجوازية تستر بمثل هذه التعابير سيطرتها يوصفها طبقة من المستثمرين ، تغدو اليوم ، بعد اسقاط البرجوازية ، اهم شعارات الساعة واكثرها الحاحا .. » (٤)

(١) المختارات ٢/٣ ص ٨٣ عن الثقافة البروليتارية (١٩٢٠) .

(٢) المختارات ٢/٢ ص ٣١٦ حول الصبائية اليسارية والنزعة البرجوازية الصغيرة (١٩١٨) .

(٣) المختارات ٢/٣ ص ١٩٣ يصدد الخطة الاقتصادية الواحدة (١٩٢١) .

(٤) المختارات ٢/٢ ص ٢٥٢ المهام المباشرة امام السلطة السوفيتية (١٩١٨) .

ولذا نراه يدعو للمثابرة ، وللطاعة ، وللنظام ، وللتضحية ،
ولكل القيم البرجوازية ، لا لأنها برجوازية ، بل لأنها من
محمولات التراث الانساني ، ومن منتوجات البشر في سعيهم نحو
الكمال ، ونحو القيم الأفضل . وإذا كانت البرجوازية تنقن
الثروة حول القيم ، فان الماركسية باستعادتها ، هذه القيم
وباستيعابها لها ، انما توحد القول والعمل ، وهذا هو معيار مثلها
الاعلى وهدفها الاسمى .

نعم لا قيم ولا اهداف خالدة ، منزلة ، معلقة ، مفارقة ، آلهية ،
سماوية الى آخر هذه الكلمات . لكن هناك قيما ومثلا أعلى ،
كما ان هناك نتاج كفاح البشر عبر تاريخهم الطويل ، علما وخلقاً
وفلسفة وفناً . الخ ، والذي يشكل رواسب وبواقي هامة في
كل مجتمع ، وهي جزء من كل مجتمع ، بشكل عادات وتقاليد ،
وبشكل نظم وقوانين . والماركسية لا تنفي كل هذا ، ولا تدير
ظهرها الى كل هذا ، بل تستفيد من كل هذا ، لا على سبيل الانتقاء
والاختيار ولا على سبيل التوفيق والتلفيق ، بل بحسب ما يناسب
مثلها الاعلى ، وهو تحقيق المجتمع الشيوعي (١) .

ان الهدف العام بوضعه هذا يوضح حدود كل من الفلسفة
والعلم ويبين العلاقة بينهما بشكل جذري .

ان الهدف العام ، لا يدخل الى النظرية العلمية الا ليعطيها
اتجاهاً ، وذلك بما يتناسب معها بحسب البرنامج او الهدف
المرحلي .

(١) ان النصوص السابقة على غاية من الاهمية . فليئين عندما يطالب بفضائل
سابقة مقتنع بان هذه القيم لا ترتد الى الانتاج السابق ، وانما الذي يرتد هذا
الاستخدام السيء لها (هذا التزوير المفضوح لها) . على هذا الاساس
وبالاستناد الى هذه النصوص يمكن وصل الماركسية بالتراث القيمي ، ويمكن
اقامة ميثاقين اخلاقيين - ماركسيين .

ان الهدف العام لا يدخل المعمل ليقول للعالم افعل هذا ولا تفعل ذاك ، واقبل هذا ولا تقبل ذاك . ولا من شأنه ان يعدل او يبدل النظرية العلمية بما يناسبه ، ذلك ان ما يحدد عمل العالم - كما في الاساس الثاني - هو دراسته للواقع المحسوس بأسلوب محسوس ، من دون اي اضافة اخرى .

وانما يأتي دور الهدف العام فيما يتلو ذلك . فيما بعد انشاء النظرية العلمية عن الواقع . عندها وبحسب الهدف العام نضع الاهداف المرحلية بحسب النظرية العلمية ، اي بحسب الواقع ، وباتجاه الهدف العام .

وبذلك فالفلسفة لا تعين خط العلم ومساره ، ولا تحدد نظرياته، بل هي تضع له اتجاهه .

ذلك ان العلم بما هو متعادل القيمة والاتجاه (القيمة والهدف) مثل الواقع الذي عبر عنه ، قابل لاضافة ما ينقصه ، قابل لحمل القيمة والهدف . وهذا هو اساس تبديل الوجود باتجاه الانسانية . وامتياز الماركسية الوحيد هنا ، هو انها تريد تبديل الوجود باتجاه الاكثرية ، باتجاه مصالح المعذبين والمستلبين حقوقهم ، لا باتجاه الاقلية ، باتجاه جلادي الشعوب كما كانت تفعل الايديولوجيات السابقة .

٤ - البرنامج يشق من الهدف النهائي وبما يناسب الواقع :

الماركسية واللينينية في الاساس الاول مرشد عمل ، وفي الاساس الثاني هي علم مجرد - خالي من الغايات والقيم - وفي الاساس الثالث هي فلسفة ، هدف بعيد يقر الشيوعية ، وفي الاساس الرابع تلقى الاسس السابقة على نحو جدلي فيصبح للعلم اتجاه ، فتشتق من الهدف العام ، المثل الاعلى ، اهدافا مرحلية تتناسب مع ما وصل اليه العلم بتحليله لجميع مظاهر الواقع .

مع هذا الاساس يتضح الفرق مع « الذاتيين » الذين اذا اهتموا بالانسان او بافكاره حسبوا انه يمكن تبديل الواقع بمجرد وضع اهداف عظيمة موضع التنفيذ ، فاذا فشلوا ردوا الامر الى ضعف اخلاق البشر ونقص تربيتهم ، اي ردوه الى الافكار .

كذلك يتضح الفرق مع الانتهازية والاقتصادية ، الذين حسبوا ان الواقع غائي ، فالدراسة العلمية توضح ما يجب ان يكون ، لان الاهداف يحددها الواقع فحسب بصورة موضوعية ، وبذلك يسقطون في مواقف انتهازية بعيدة عن الهدف النهائي .

(١) ان البرنامج لا يشتق من الهدف العام فحسب ، والا كنا طوباويين ، وعلى نحو اكثر دقة ، كنا ادعياء ، وبتعبير لينين تتشكل الصبائية اليسارية .

(٢) والبرنامج لا يشتق من الواقع فحسب ، والا كنا اقتصاديين وانتهازيين وفي كلا الحالتين ، يحدث انفصام بين القول والفعل . القول يلتزم بالماركسية اسما ، وفعلًا يلتزم هؤلاء بايديولوجية البرجوازية المسيطرة .

وانما يشتق البرنامج من الهدف العام ، كخطوة باتجاهه . تحددها الظروف الواقعية بكل ابعادها : الوضع الاقتصادي : نسب القوى المتصارعة ، التنظيم والوعي . الخ . ولما كان الواقع متبدلا ، فالنظرية العلمية متبدلة عنه ، ولذا فالبرنامج بالتالي يجب تبديله . وبالعكس فان البرنامج بحد ذاته تخطيط لتبديل الواقع ، وهو يبذل الواقع ، لذا فالضرورة تقتضي تعديل النظرية العلمية عنه .

وهكذا نرى - اذا - الوجود جدلي ، فان اهم ما في هذا الجدل ، على المستوى الاجتماعي ، هو جدل البشر مع الوجود ، لتبديل البشر ، بافكارهم وبرامجهم ، وبعلاقاتهم ، ولتبديل الوجود ، وتنظيمه علميا وهدفيا ليكون للانسان شيئا فشيئا ، حتى تتم السيطرة التامة عليه ، وذلك منتهى الكمال الذي يسعى اليه البشر كجزء من مثلهم الاعلى .

لنعالج الاخطاء المرتكبة عند وضع البرنامج او التكتيك او الشعار او الهدف المرحلي . ولنلاحظ منذ البدء انه وان كانت الاخطاء نوعين ، فهما متصلان ومتشابكان ، ويؤديان الى بعضهما ، على الرغم من تمايزهما ، ولا ننسى خلال ذلك ان الاتجاه نحو الواقع او نحو الهدف البعيد على حدة يشكل بحد ذاته خطأ في التحليل العلمي . كما لا ننسى ان معالجة الاخطاء المرتكبة هي

استعادة لكل ما مر معنا وتأكيد جديد على ما ذكرناه .
الخطأ الاول : ويضع ممثله شعاره بحسب الواقع من دون ان ينظر الى الهدف العام ، وغالبا ما يكون فهمه للواقع مشوها وناقصا .

وقد استعرضنا فيما سبق النزعة الاقتصادية التي وصلت الى ان الاقتصاد متأخر ، والثورة المقبلة برجوازية ، لذا حددت شعارها بالاصلاحات الاقتصادية . وقد رد لينين مفندا هذا الشعار البرجوازي . نعم الثورة المقبلة برجوازية ، لكن الهدف يجب ان يكون توعية وتنظيم البروليتاريا ، مع فضح للحكم القيصري الجائر ، وفضح للبرجوازية المتكونة .

ومثال آخر، هو موقف كاوتسكي من الحرب العالمية ، ان وجد في مبدأ « الدفاع عن الوطن » ذريعة ليوافق على الحرب ، وليقف بجانب رأسماليي دولته (١) . وقد ادان ليكنخت وروزا لوكسمبورغ هذا الموقف مما ادى الى انشقاق الحزب في المانيا ، وتشكيل عصبة سبارتاكوس (٢) . كذلك ادان لينين هذا الموقف، كتب : « ان افلاس الاممية الثانية قد تجلى بالغ الوضوح في خيانة اغلبية الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية الرسمية الاوروبية خيانة فاضحة لعقائدها وقراراتها الصريحة المدوية التي تبنتها في شتوتغارت وبال ٠٠٠ » (٣) . ان زعماء الاممية قد خانوا الاشتراكية حين صوتوا بالموافقة على الاعتمادات الحربية ، ورددوا الشعارات الشوفينية (الوطنية) التي تنادي بها برجوازية بلدان « هم » ، وبرروا الحرب ودافعوا عنها ، ودخلوا الوزارات البرجوازية في البلدان المتحاربة ، الخ ٠٠ الخ » (٤) . ان منطق

(١) راجع رأي كاوتسكي في كراسة افلاس الاممية الثانية ص ٢٠ (١٩١٥)
دار التقدم .

(٢) راجع رأي روزا في كتابات مختارة ص ١٦٩ وما بعدها . دار الطليعة - بيروت .

(٣) افلاس الاممية الثانية ص ٧٠ .

(٤) المختارات ٢/١ ص ٢٧٣ الحرب والاشتراكية - الديمقراطية الروسية (١٩١٤) .

كاوتسكي مؤسس على أن المانيا مهددة بالحرب ، فما هو موقف العمال ؟ يجب ان يقفوا ليحاربوا ضد الدولة المعتدية ونسي خلال رفعه هذا الهدف ، نسي الهدف العام ، نسي ان تأييد الحـرب يعني تأييد ان يتقاتل كادحـو الدول لصالح رأسمالييها ، وان هذا لا يقدم أي فائدة للحركة الشيوعية ، بل على العكس انه ضربة قاضية لهذه الحركة . من هنا اتهام لينين لكاوتسكي بالخيانة ، موضحا الفرق بين الحرب الوطنية التي يمكن ان تؤيدها الحركة الاشتراكية ، بما هي حرب دولة مظلومة ، ضد دولة ظالمة . كما انه سعى في « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » الى بيان الخطأ الاساسي في تحليل الواقع عند كاوتسكي ، مبينا أن هذه الحرب ، هي حرب الدول الامبريالية في سعيها لاقتسام العالم .

ومثال ثالث ، هو رأي محلي الواقع الروسي ، والذين توصلوا الى ان روسيا لم تنضج للثورة ، لذا يجب على البلاشفة ان لا يستلموا السلطة . « ٠٠ » ان مارتوف بيرهن (وكاوتسكي يردد في اثره) ان روسيا لم تنضج بعد للاشتراكية ، ينجم عن ذلك بصورة طبيعية انه لم يثن الاوان لتحويل السوفيتيات من هيئات للنضال الى منظمات للدولة (١) و « يقول الرفيق ريكوف انه ينبغي ان تأتي الاشتراكية من بلدان اخرى لها صناعة اكثر تطورا . ولكن هذا ليس صحيحا . فلا يمكن القول من ذا الذي سيبدأ ومن الذي سينجز . ليس هذا بماركسية ، بل هو صورة هزيلة للماركسية . لقد قال ماركس ان فرنسا ستبدأ والمانيا ستتنجز . ولكن الواقع ان البروليتاريا الروسية قد توصلت الى اكثر مما توصل اليه احد ما . » (٢) وقد اهتم لينين برد هذا الرأي الاهتمام الكبير ، من ذلك قوله : « ٠٠ وهكذا نراهم يستشهدون بذريعة في اقصى الابتذال حفظوها غيبا خلال تطور الاشتراكية - الديمقراطية في اوروبا الغربية ، وقوامها القول اننا لم ننضج للاشتراكية ، واننا لا نملك المقدمات الاقتصادية الموضوعية للاشتراكية حسب تعبير

-
- (١) المختارات ١/٣ ص ١٢٢ الثورة البروليتارية والمترد كاوتسكي (١٩١٨) .
(٢) المختارات ١/٢ ص ١٢٦ المجلس العام السابع - ح . ع . د . ر .
(١٩١٧ - نشر ١٩٢١) .

بعض السادة من علمائهم • ولا يخطر على بال احد ان يتساءل : اذا ما جابه شعب وضعا ثوريا كالوضع الذي تبدى لدن الحرب الامبريالية الاولى ، أليس بوسع هذا الشعب أن يندفع ، تحت طائلة حالة لا مخرج منها ، الى خوض نضال يوفر له ولو بعض الامل بالظفر بشروط غير مألوفة تماما من أجل تطوير مدنيته ؟ » (١) .

ولذا أدخل الموضوع في قرار حزبي : « تعتبر اللجنة المركزية ان المعارضة التي تكونت داخل اللجنة المركزية تنحرف كليا عن جميع المواقف الاساسية للبلشفية وللنضال الطبقي البروليتاري على العموم ، وتكرر الكليات غير الماركسية اطلاقا حول استحالة الثورة الاشتراكية في روسيا وحول ضرورة التراجع ، انذارات وتهديدات تطلقها اقلية بينة من المنظمة السوفياتية بالتقاضي جانبا ٠٠٠ » (٢) .

في جميع هذه الامثلة ، وسواها ، نجد ان الخطأ مرتكب لكون اصحابه ينظرون الى الواقع فحسب ، ونتيجة لذلك يضعون اهدافهم ، واذا بها اهداف تعارض الهدف العام ، وتوصل الحركة الاشتراكية الى تبني اهداف اعدائها • في جميع الامثلة نجد ان النتيجة هي ابعاد الهدف العام ، والركوع للواقع ، اي الركوع للبرجوازية ، والتمتع بالرحب بصفة الانتهازية • انهم ماركسيون قولا ، وانتهازيون ، عبيد للبرجوازية فعلا •

ان هذا الخطأ يوضح المعيار ، وهو الالتزام بالهدف العام بما يتناسب مع الواقع ، وهذا المعيار يكشف الانتهازية (خاصة في بلادنا الان) والذين يصرخون مرددين الاهداف العامة ، على حين انهم غارقون بما هو نقيضها ، مبررين ذلك بدعوة يحسبوننها تمسح العيوب وتغطي التلاعب ، قائلين : ان هذا كله تكتيك ، ودليل ذلك اننا نؤمن بالهدف العام ، بيد ان دليل الايمان بالهدف العام ، هو اشتقاق الهدف المرحلي ، والتكتيك منه ، لا الركوع للظروف والواقع لتبرير الانتهازية والجبن ولوضع الهدف العام فسي السماء •

- (١) المختارات ٢/٣ ص ٤٧٠ حول ثورتنا (١٩٢٣) .
 (٢) المختارات ٢/٢ ص ٣٣ قرار اللجنة المركزية للحزب (١٩١٧) .

كتب لينين : « اذكر ان نابليون قال : اولاً يدخل المرء معركة جدية ثم ... يرى » (١) وهؤلاء يقولون : الواقع ، الظروف ، الموضوعية ، ليهربوا من المعركة الجدية ، وليستسلموا للواقع وللظروف .



اما الخطأ الثاني : فهو نقيض الاول ، يصرخ اصحاب الخطأ الاول ، الظروف ، الواقع ، ويصرخ اصحاب الخطأ الثاني : المبدأ ، الهدف العام . مع ذلك يلتقي الاصحاب كلهم بعيداً عن المعركة الجدية ، بل وليحاربوا في الصفوف الاخرى .

المثال الاول ، وفيه نرى الهدف العام ، وقد اتخذ شكل مبدأ عام ينص على ان نجاح الثورة الاشتراكية مرهون بعالميتها . فما هو موقف لينين من هذا ؟ قال : « ٠٠ » واذا نظرنا على الصعيد العالمي التاريخي ، فانه لا سبيل لذي شك بان انتصار ثورتنا النهائي سيكون ميؤوساً منه اذا بقيت وحيدة ، اذا لم تقم حركة ثورية في البلدان الاخرى ٠٠ » (٢) لكن : « لا ينبغي تحويل هذا الشعار الكبير : « اننا نعلق الآمال على انتصار الاشتراكية في اوروبا » الى مجرد جملة فارغة . وهذه هي الحقيقة ، ان لم يغب عن انظارنا ذلك الطريق الطويل الشاق ، طريق انتصار الاشتراكية النهائي . وانها لحقيقة فلسفية وتاريخية لا جدال فيها ، اذا ما القينا نظرة شاملة على « عهد الثورة الاشتراكية » بمجموعه ، ولكن كل حقيقة مجردة تغدو جملة فارغة اذا طبقت على كل وضـع ملموس ٠ » (٣) وبالنسبة : « ٠٠ » حين يقولون لنا ان انتصار الاشتراكية غير ممكن الا على النطاق العالمي ، فاننا لا نرى في هذه الاقاويل سوى مناورة ، يائسة جدا تقوم بها البرجوازية وانصارها الواعون وغير الواعين من اجل تشويه الحقيقة الساطعة التي لا

(١) المختارات ٢/٣ ص ٤٧٢ حول ثورتنا (١٩٢٣) .

(٢) المختارات ٢/٢ ص ١٦٦ المؤتمر الاستثنائي السابع للحزب ١٩١٩ .

(٣) المختارات ٢/٢ ص ١٤٥ درس قاس ولكنه ضروري ١٩١٨ .

جدال فيها على الاطلاق » (١) . وهكذا فان انتصار الثورة في روسيا ، يخدم الثورة الاشتراكية العالمية ، مما يثيره من حماسة لدى الجماهير في جميع البلدان .

والمثال الثاني ، يوضح هذه « الصبائية اليسارية » التي تتعلق بالهدف العام ، ولا تنظر الى الواقع . طرح لينين صلح بريست لانه وجد ان بلاده لا تستطيع متابعة الحرب ، فقد دمرت بلاده ، وهي على ابواب المجاعة ، فوقف اليساريون المتطرفون ليعارضوا الصلح (٢) ، وانتصر رأي لينين ، ووقع الصلح المجحف وبدأ البناء ، ثم اعترف بوخارين وسواه بخطأهم ، « فقد تراءى لهم ان صلح بريست هو مساومة مع الامبرياليين غير جائزة مبدئيا ومضرة بحزب البروليتاريا الثوري . وقد كان ذلك في الواقع مساومة مع الامبرياليين ، لكنها كانت في ذلك الظرف بالذات مساومة لا مناص منها » (٣) ، ووضح ان هؤلاء يحفظون عن ظهر قلب شعارات الثورة اكثر بكثير مما يتأملونها (٤) . ومثال آخر من كتساب « الصبائية اليسارية يوضح الامر على نحو افضل ، طرح لينين شعار رأسمالية الدولة ، وبين كيف ان هذا الشعار هو خيانة للاشتراكية من وجهة نظر هؤلاء ، ليرد بان الواقع يفترض هذا الشعار (٥) .

والمثال الثالث نأخذه من « مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية » وهو يدور حول جمود الاطفال اليساريين حول المبدأ ، ويقابله لينين بشعار المرونة والمساومة بحسب الظروف الملموسة . قالوا لا اشترك في برلمانات رجعية ، وقالوا لا عمل في نقابات رجعية ، ولا تعامل مع البرجوازيين الصغار . ويطرح لينين نقيض كل هذا بحسب ما يمليه الواقع الملموس . من هنا حديثه عن عدم الجمود ، والمرونة والمساومة . كتب : « يستحيل بناء

(١) المختارات ٢/٢ ص ١٣٠ المؤتمر الثالث لسوفييتات نواب العمال ١٩١٨ .
(٢) و (٤) المختارات ٢/٢ راجع ص ٢٩٨ - ٣٠٦ حول الصبائية اليسارية ١٩١٨ .

(٣) المختارات ١/٣ ص ٤٨٤ مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية ١٩٢٠ .

(٤) المختارات ٢/٢ ص ٣١٠ حول الصبائية اليسارية .

(٥) نفس المرجع السابق .

تاكتيك ثوري على الروحية الثورية وحدها . يجب ان يتأسس التاكتيك على حساب دقيق وموضوعي صارم لجميع القوى الطبقية في الدولة المعنية (والدول المحيطة بها ، وجميع الدول في المجال العالمي) وكذلك على حساب تجربة الحركات الثورية (١) ووضع خطه: « ينبغي الجمع بين الاخلاص الشديد لمبادئ الشيوعية وبين المقدرة في الاقدام على جميع المساومات العملية الضرورية ، والمناورات والاتفاقات واللف والتراجع وما الى ذلك » (٢) . و « ٠٠ يجب على الطبقة الثورية من اجل تحقيق مهمتها ، ان تضطلع بجميع النشاط الاجتماعي وتواجه دون استثناء اي كان ٠٠ والثاني ، انه يجب على الطبقة الثورية ان تكون على استعداد لتنتقل باتم السرعة والمفاجأة ، من شكل الى شكل آخر » (٣) مقابل اليسارية المتطرفة التي لا تعرف الا طريقا وحيدا ، وبذلك رأى لينين ان العقائدية اليسارية خطأ مثل العقائدية اليمينية (٤) لان نفي المساومة مبدئيا وعامة هو صبيانية يتعذر قبولها كأمر جدي ، وهو امر سخي (٥) .

وهكذا نجد من الامثلة السابقة ، ان وضع البرنامج او التكتيك، بحسب الهدف العام من دون نظر في الظروف الواقعية يولد الصبيانية ، يولد الجمود ، وعدم القدرة على فهم الواقع والتصرف به ، ومما يؤدي الى وضع شعارات واهداف مرحلية غير منسجمة مع الواقع ، وبالتالي الانعزال عن الجماهير ، والابتعاد عنها والسير وراء سراب غير مجد .

وبذلك يتضح ضرورة اخذ الواقع بعين الاعتبار ، مثلما اتضح ضرورة اخذ الهدف العام ايضا .

-
- (١) المختارات ١/٣ ص ٥١٥ مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية عام ١٩٢٠ .
 - (٢) المرجع السابق ص ٥٥٢ .
 - (٣) المرجع السابق ص ٥٥٣ .
 - (٤) المرجع السابق ص ٥٦٢ - ٥٦٣ .
 - (٥) المرجع السابق ص ٤٨٥ و ٥٢١ .

وكمثال اخر نقاش لينين في حق الامم في تقرير مصيرها : راجع ٢/١ من المختارات .

أجمل لينين الخطأين السابقين في حديثه عن الضريبة العينية برده على بوخارين ، قال :

« فأننا من جهة لفرتكب خطأ لا علاج له اذا ما صرحنا انه ما دام انعدام التناسب بين قوانا الاقتصادية وقوتنا السياسية امرا ثابتا ، لم يكن ينبغي بالتالي اخذ السلطة • فتلك محاكمة » رجـال معـلين »

« ومن الخطأ البين من جهة اخرى ، افساح مجال العمل امام الصياحين ومنمقي الجمل ، الذين يؤخذون ويفتتون بالثورية » البراقة » ولكنهم عاجزون عن القيام بعمل ثوري دائب ، عاقل ، موزون ، يحسب الحساب لأصعب الاطوار الانتقالية (١) •

لا هذا ، ولا ذاك ، وانما علاقة جدلية بين الواقع والهدف العام نستخلص منها نتيجة لذلك برنامجا يحسب حساب الواقع ، ويتجه نحو الهدف العام •

وبذلك تتربط الاسس السابقة ، فالنظرية او الهدف العام مرشد ، بحسبه نحلل الواقع ونستخرج نظرية علمية • وبحسب هذه النظرية وبحسب الهدف العام نضع هدفنا المرحلي •

لكن يبقى كل هذا ناقصا ، ولا يتمه الا الاساس الخامس ، وهو العمل لا القول ، وبه يتحول الهدف المرحلي او البرنامج الى قوة مادية تبدل الواقع وتبدل نفسها نتيجة لذلك • وعلى هذا النحو تتكامل اسس اللينينية (والماركسية) كفلسفة وكعلم وكعمل ، للوصول بالانسان الى حريته وكرامته •

ان هذين الخطأين يوضحان مفاصل العلاقة بين العلم والفلسفة ، وجدلية هذه العلاقة • وهنا بالذات يتضح هذا الاصرار الماركسي

(١) المختارات ٢/٣ ص ٢٤٠ عن الضريبة العينية (١٩٢١) • اعتبر لينين بروليتاريا روسيا متقدمة بقوتها السياسية على اوروبا ومتأخرة عنها اقتصاديا • وهذا ما يعنيه بعدم التناسب •

على الديالكتيك ، بما هو حوار اي تفاعل وتداخل ونمو داخلي .
وهنا بالذات يتضح مفهوم الانسان - الذات - الفرد ، والذي يخرف
حسب اعتقاد بعض نقاد الماركسية وبحسب اعتقاد بعض السطحيين
ممن يجرون وراء العربة . يتضح مفهوم الانسان ، بما هو مجادل
للوجود ، ومتفاعل معه وفيه ، ومتطور معه وفيه ، بما هو اداة
تبديل الوجود وجعله وجودا يتجه الى غايته .

الخطأ الال يضع جانبا الهدف العام ، وبالتالي الانسان ،
وينصاع للظروف ، فهي كل شيء فيه . من هنا يرفع أصحابه
شعارات محددة بحسب ما يتبدى من الواقع آنيا . فمثلا يطالبون
باصلاحات جزئية معينة .

ولسنا ضد المطالبة بالاصلاحات الجزئية ، فيما لو كانت تنبع من
رؤية شاملة للواقع وللهدف البعيد . بيد ان هؤلاء لا يرون من الواقع
الا الجزء فحسب ، كما انهم يبعدون الهدف لانه بعيد .

ونستطيع (في ايامنا هذه ، في بلادنا) ان نرى نموذجا لهذا الخطأ،
في هذا النقد المكرر في الاذاعة والمسرح والصحف . والتي تتجه
الى مواضيع جزئية محللة وناقدة مبينة الاخطاء والتجاوزات ، في
كل يوم .

وبحسب هذا المثال الواقعي يمكن ان نتبين ما في هذا الخطأ من
جوانب :

انهم يبتعدون عن الاساس الحقيقي للمشاكل كلها التي تسبب
النقد ، ويحولون القضية الى افراد مخطئين ، كسالى ، مرتشين ،
لا ضمير لهم . فكأن الوضع سليم ، والقانون أسلم ، انما القضية
مجرد مخالفات من قبل افراد معدودين . والحل عند هؤلاء - بالتالي -
مجرد طلب اصلاحات سطحية ، مثل معاقبة هؤلاء الافراد . ومثل
رفع الظلم عن افراد آخرين ، من دون بحث في الاسباب الحقيقية ومن
دون طرح للحلول الصحيحة .

وقد ينجح النقد في الوصول الى بعض الاصلاحات فعليا ، بيد ان
هذه الاصلاحات لا يمكن لها ان تنهي المشاكل ، ما دام النقد لم
يتعمق دراسة الواقع وما فيه من مسببات عميقة للاخطاء . ولذا

فبدلاً من ان تنتهي المشاكل نراها تزداد وتتسع دائرتها ، وبالتالي يتفاقم الاحتجاج ويعلو النقد الصارخ من دون جدوى .

بيد ان مثل هذا النقد - بما هو فعل مخطط له مسبقاً - ينجح بالتنفيس عن المشاعر ، وينجح في اطفاء الثورة المتصاعدة عند المترددين وغير الواعين لوضعهم الطبقي ، وينجح بأبعاد هؤلاء عن الاسباب الحقيقية ، ويضيعهم في دوائر متقنة الرسم ، لكنها جوفاء . كما انه ينجح بأبعاد هؤلاء عن رؤية الحلول الصحيحة التي يجب عليهم ان يتجهوا اليها .

ان اي سلطة مستعدة للتسامح مع مثل هذه البرامج ، ما دامت لا تمس سلطانها بل ومستعدة لتشجيع هذا النقد ما دام يتجه الى سواها . . . ومستعدة بالتالي لتنفيذ ما تراه مناسباً من الاصلاحات الجزئية وغير الضارة ما دامت مثل هذه الافعال ستجر عليها فيما يتلو المديح والتأييد .

وليس عبثاً ان تكتشف السلطة هذا « السيف » الجديد ، لتحارب به ، وبكل فرح ولذا فليس عبثاً بالتالي ، ان يسقط الراكعون للظروف تحت وطأة الظروف وتحت اقدام السلطة .

وهو ما نراه امامنا !

ان البرنامج ليس انصياعاً للواقع ، ولا يكون بفتح خمارات تنشد نشيد السلطة والمستغلين . بل هو وعي للواقع ، ووعي لنواقصه ، ودعوة لتبديل هذا الواقع ، ولالغاء نواقصه . وهذا لا يكون الا اذا أسترشدنا بالهدف العام ، بما يتلاءم مع الواقع ، ومع نظريتنا العلمية عنه .

من هنا لا يمكن ان نردد بحرفية « الهدف العام ، الهدف العام » مطالبين بتحقيقه فوراً ، ومباشرة ، من دون اي اعتبار للواقع ولعناصره ولقواه ولنسب هذه القوى ، بل لا بد من صنع الجدل المستمر لوضع الاهداف المرحلية على طريق الهدف العام ، وبما يتناسب مع الواقع .

قد تبدو الصبائية ، مجرد صبائية غير واعية ، تعطي للافكار وللذاتية قدراً كبيراً ، مضخمة هذه القوى على حساب الظروف

الموضوعية . بيد ان الامر أبعد من ذلك . ان ليس المهم مناداتني
بهدف ما كمثل اعلى ، بقدر ما المهم كيف ترجمت هذا الهدف الى
افعال واقعية . كيف فهمت هذا المثل وكيف تمثلته عملا يوميا ؟ عندها
يتبين لنا انزلاق هذه الصبيانية الى الخط الآخر المعادي لتكون
يتبين لنا انزلاق هذه الصبيانية الى الخط الآخر المعادي لتكون
سلاحا اخطر في صدر الثورة ، وهو ما تنقاد اليه دوما معرقة
المسيرة بالمزايدات الكلامية ، ومعرقة المسيرة بالانضمام الى اعداء
الثورة عمليا .

على هذا النحو ، وخوفا من المثاليات المخادعة ، والكلام حبا
بالكلام قيد ماركس حديثه عن المثل الاعلى ، وجعله نقفا قليلة هنا
وهناك . وانصب عمله على تحليل الواقع الملموس ، راسما مرة تلو
مرة البرنامج المناسب بحسب الهدف العام وبحسب امكانيات
الواقع . ان المهم بالدرجة الاولى البرنامج اليومي ، الهدف المرحلي .
وبذا فمن لا يفهم هذا البرنامج ، فهو بعيدا جدا عن الهدف العام ،
مثمنا هو ابعد عن الواقع .

وعلى هذا النحو يمكن ان نرد التساؤل الى وضعه الصحيح ،
وذلك عندما يتعجب بعضهم ، كيف نحارب ايدولوجيات تدعو لاهداف
عامة ولمثل عليا . تدعو للخير وللحب وللمساواة وللأخوة وللأخلاق
النبيلة والسامية . الخ . الخ ؟ مما يؤدي الى عمليات التلفيق
والتوفيق .

نرد التساؤل بحالته الى السؤال الحاسم حول الصبيانية ، كيف
تجلت تلك المثل العليا على ارض الواقع ؟ كيف فهمت تلك
الايدولوجيات الخير والاخلاق في برنامجها الواقعي ؟ كيف ترجمت
دعواتها الى قوانين ، وكيف ترجمت اقوالها الى اعمال وافعال ؟
ان الاجابة على مثل هذه الاسئلة ، يضع قضية الهدف العام
والمثل العليا في الايدولوجيات السابقة في موضعها الصحيح بعيدا
عن التزوير ، ان المهم كيف تجلى القول فعلا ، لا كيف تجلى حروفا .
والامر نفسه بالنسبة للذين يصرخون من وراء الكتب الماركسية:
الهدف العام . . الهدف العام . لنرى الاعمال . وعندها نكتشف
التزوير والخداع .

اذن فليست القضية معارضة الهدف العام بالظروف الموضوعية
كما يحسب بعضهم ، وليست محاربة للمثل العليا للانسان . بل

القضية كيف نوائم بين الهدف والواقع فنشتق اهدافا تلو الاهداف باتجاه المثل الاعلى . والقضية ان نفهم كيف ترجم الانسان في ظرف محدد مثله الاعلى الى اهداف مرحلية ، وبالتالي ان نناقش هذه الاهداف لرؤية مقدار اقترابها او ابتعادها عن الهدف العام . وبذلك نضع معيارا يفرق بين الكلام كقول وكفعل ، مثلما وضعنا المعيار الفاصل بين العلم والفلسفة .

ان الطريق الى الهدف العام يمر بهذه الارض عبر ظروف محددة وبواسطة بشر ذوي نزعات مختلفة ، ولا طريق آخر .

٥ - العمل المهادف :

الماركسية فلسفة العمل .

في الفلسفة القديمة نجد المنطلق الخاص بها « في البدء كانت الكلمة » أو الفكرة الطلقة أو العقل أو الله . الخ . وفي العصر الحديث ، كشف غوته عن المنطلق الخاص به اذ قال « في البدء كان العمل » . ومع المادية نجد ان المنطلق أصبح « في البدء كانت المادة » . فما هو موقف ماركس ؟

وضع ماركس في رأس المال ثنائية المادة والعمل . وفي رده على فيورباخ ركز على العمل لتصحيح المادية . بيد انه ركز على الهدف (الافكار الانسانية) ساخرا من شعار جوته .

كتب ماركس ضد فيورباخ :

« ان العيب الرئيسي للمادية السابقة كلها - بما فيها مادية فيورباخ - هو ان تصور الشيء ، الواقع ، الحسية ، لا يتم فيها الا على صورة الموضوع او المشاهدة ، وليس على اعتبارها فاعلية انسانية حسية ، على اعتبارها ممارسة ، ليس بصورة ذاتية . (١) وكتب انجلز عن دور العمل (الجهد) في تطور الانسان :

« يؤكد علماء الاقتصاد السياسي أن الجهد مصدر الثروة جميعا . وأنه بعد الطبيعة التي تؤمن له المادة التي يحولها الى ثروة ، هو حقا المصدر . لكنه وبصورة مطلقة أيضا ، أكثر من

(١) (اطروحات) عن فيورباخ : الفرض الاول . في نهاية كتاب انجلز عن

فيورباخ : ت فؤاد ايوب . دمشق .

ذلك . انه الشرط الاساسي الاول للوجود البشري جميعه ، وهذا ، باعتماد تفسير آخر ، يحملنا الى القول أن الجهد خلق الانسان نفسه » . (١)

وفي رأس المال ، رد ماركس قيم الاستعمال الى العمل والمادة ، كما رد قيم التبادل الى العمل وحده . (٢) وفي هذا الكتاب سخر من جملة جوته ، فكتب عن المبادلين : « ومبادلونا في ارتباكهم ، يفكرون مثل فاوست : في البدء كان العمل ، ولذلك فقد تصرفوا فعلا قبل ان يفكروا » (٣) . وسوف يتبعه لينين ناقدا برنشتين عندما كتب : « ان كلمة برنشتين المجنحة « الهدف النهائي ليس بشيء ، الحركة هي كل شيء » ، تعبر عن طبيعة النزعة التحريفية خيرا من عدد كبير من الشروحات المستقيضة » (٤) ذلك أن ماركس ومن بعده لينين ، رأى ان العمل مسبوق بالافكار والاهداف ، ولذا قال - ماركس - « . ولكن ما يميز أسوأ مهندس عن أخيرنحلة منذ البداية ، هو انه يشيد الخلية في رأسه قبل أن يشيدها في القفير ، فالنتيجة التي يؤدي اليها العمل موجودة مثاليا ، مسبقا ، في خيال العامل ، لا لانه يحدث تبديلا في المواد الطبيعية فقط ، بل لانه يحقق بالفعل ذاته هدفا خاصا يعيه ويحدد اسلوب تصرفه كقانون ، ويجب ان يخضع ارادته له » (٥) .

لقد كانت مهمة ماركس مزدوجة ، ان كان عليه أن يواجه المثالية التي تحيل الوجود والتطور الى الكلمة ، وكان عليه أن يواجه المادية التي تحيل الافكار والتطور الى المادة ، وفي كلا الحالتين وضع اطروحة العمل كرد حاسم على هيجل وعلى فيورباخ ، متجاوزا الاثنين معا باتجاه فلسفة العمل .
في المجتمع الانساني ، لا نجابه مادة مستقلة ، بل نواجه انتاجا انسانيا (مادة مصنوعة = مادة + عمل) . وقد اهتمت المثالية

(١) جذليات الطبيعة : انجلز ٢٣٦ ت : محمد اسامة القوتلي . دمشق .

(٢) راجع بحثنا السابق نحو فهم الماركسية - فصل علم العمل .

(٣) رأس المال ك ١ ج ١ ص ١٤٤ ط ٢ ترجمة انطون حمصي . دمشق ١٩٧١ .

(٤) المختارات (لينين) ١/١ ص ٩٣ الماركسية والنزعة التحريفية ١٩٠٨ .

(٥) رأس المال ك ١ ج ١ ص ٢٨٢ .

بالعمل (وبالأحرى الجانب الذاتي من العامل) بصورة مجردة ،
وكرر على ذلك طلب فيورباخ المادة بصورة متميزة عن الأفكار ،
ويرد ماركس بأن الفاعلية الانسانية هي فاعلية موضوعية . ولذا
لا يمكن ان نرد البشر كنتاج للظروف وللتربية ، ذلك أن البشر هم
الذين يغيرون الظروف ، وهناك توافق في تغيير الظروف وفي
الفاعلية الانسانية . حتى عندما تقتصر على نظرية المعرفة ، والتي
أرادها فيورباخ حسية ، نسي أن هذه الحسية بمثابة فاعلية عملية
حسية انسانية (١) .

وكتصحيح لما يتبادر للذهن عن أهمية العمل ، وطبيعته المجردة ،
ضد فاوست جوته ، ربط ماركس العمل بالفكر ، كامتياز انساني ،
فالافكار عندما تغدو عملاً - عندما تستولي على الجماهير - تصبح
قوة مادية . تصبح أداة لتبديل الواقع . وبذلك أحكم ماركس ربط
هذه العناصر ببعضها . فضد المثالية ، الأفكار لا تعني شيئاً ، مالم
تعبّر عن آماني الجماهير ، ومالم تتبناها ، مالم تحولها الى عمل
يبدل الوجود ، ومن دون ذلك مجرد كلام لا يعني شيئاً . وضد
المادية رأى ان المادة نفسها من صنع الانسان ، فلا يمكن تفسير
الوجود من دون أن ندخل آثار الفاعلية الانسانية ، فلا يمكن تفسير
يتغير بفضل هذه الفاعلية الهادفة . وفي كلا النقيض يظهر العمل
ليصحح في علاقات جدلية ، توضح بصورة كاملة اهتمام ماركس
بالديالكتيك وكيفية فهمه له ، وكيفية ادخاله في تفسير التراكيب
المعقدة في المجتمع الانساني .

وهكذا نجد كبديل عن ذاك التبسيط الباحث عن العنصر الاول
(البدئي) ، نجد كشفا للعلاقات الجدلية في المجتمع الانساني ،
وبحسبها نتفهم طبيعة هذا المجتمع (فيكون لدينا العلم ، وبحسبها
نتفهم كيفية تبديل هذا المجتمع ، بوضع الاهداف
الصحيحة (فتكون لدينا الفلسفة) . واسطة العقد هو العمل .
نعم في البدء كانت المادة ، وقبل أن يكون الانسان . لكن مع
وجود الانسان دخل العمل الهادف ، اي دخلت الافكار . وكل
تفسير للمجتمع الانساني يجب ان يرى هذه العلاقات المتكاملة :
عناصر موضوعية (الوجود المادي وتجلياته) والعناصر الذاتية

(١) راجع اطروحات عن فيورباخ : الاطروحة رقم ١ و ٣ و ٤ و ٥ .

(الافكار والعمل) . لكن هذه الرؤية لا تمسك عناصر مجردة ، منعزلة عن بعضها ، بل تكتشف العناصر في علاقاتها الجدلية . لذا فالمادة ، بل وما هو انساني ينكشف في علاقاته الاجتماعية ، كتاريخ اجتماعي محدد . وبالتالي - يعد التفسير - تبني الفلسفة الاهداف المرحلية انطلاقا من هذه العلاقات الجدلية والاجتماعية . وبذلك فامتياز ماركس عن المثالية بكونها ربطت الافكار بالعمل ، وامتياز الماركسية عن المادية بكونها ربطت المادة بالعمل ، وامتياز الماركسية عن البراجماتية كونها جعلت العمل هادفا . وفي كل امتياز نجد القضية هي العمل ، الا يحق لنا بعد ذلك اعتبار الماركسية فلسفة العمل الهادف ؟

وفيما سبق تحدد العمل بصورته الكلية ، اي بشكله الواقعي والتاريخي ، بما هو صفة الانسان الاولى كمنتج ، وبما هو فعل يقتزن المادة فيتحد بها ويتكون نتيجة لذلك المجتمع الانساني ، بحيث ان تتبع العمل يكون تاريخ الحضارات . مثلما يقدم لوحة علمية عن اي مجتمع في اي ظروف .

وهذا هو المعنى الاعم للعمل ، والذي توصل اليه ماركس نتيجة لتحليل واقع الرأسمالية بما هي سرقة للعمل المستلب (سرقة فائض القيمة) . وذلك برده القيم والتراكم الى العمل بالدرجة الاولى . ولذلك بنى كل أهدافه (فلسفته) على الغاء هذا الاستلاب للعمل ، لتحرير الانسان من ضياعه ولاستعادة كرامته وانسانيته ، وذلك بالعمل أيضا ، وللوصول الى غاية تخص العمل أيضا ، للوصول الى جعل العمل حاجة أولى ، للوصول الى العامل المحرر والذي يعمل تلقائيا ، للوصول الى العامل كإنسان المستقبل . عبر هذا نفهم العمل كصانع للافكار وكمنتج لها ، وكصانع للواقع وكمبدل له ، ونفهمه كمعيار للافكار يصححها ويثبت مدى صدقها ، ونفهمه كتطبيق لها . (١)

فما هو موقف لينين ؟
أن جهره اسهامه في الماركسية هو تأكيده على العمل الهادف ،

(١) للأسف لم يفهم العمل الا كتطبيق للافكار ، وبذلك مسخت هذه الاطروحة مسخا يلغي الماركسية ويلغي الجدول لحساب المادية المؤلهة !

لانه عبر هذا الاساس انما ينص صراحة وضمنيا على كل ما سبق . وفي الحقيقة نجد أن كل ما سبق من أسس انما تلتقي في حلقة كاملة حول هذا المحور .

وقد نقلت فيما سبق (عند دراسة الاساس الثالث : الهدف العام آراء لينين التي فيها نمت فلسفة ماركس . فهدف الشيوعية هو الوصول الى العمل كحاجة أولى ، والوصول الى الغاء الفرق بين العمل اليدوي والفكري . ونكتفي هنا بالتذكير بفكرته عن أن ديكتاتورية البروليتاريا تحقق . . بالقياس الى الرأسمالية ، النموذج الاعلى لتنظيم العمل في المجتمع » . (١) ومعنى هذا هو تحرير العمل وانتصاره أي انتصار انسانية الانسان على صغمية البضاعة » لقد انتصرت الرأسمالية في العالم بأسره ، ولكن هذا الانتصار ليس سوى المقدمة لانتصار العمل على الرأسمال » . (٢) وهكذا يرتفع لينين بالعمل ليجعله رديفا لكلمة انسان ، كيف لا والغاية الاساسية ازالة التراكمات التاريخية المعوجة ، لكشف بنية الانسان بما هي حاجة أولى للعمل ، للعمل الهادف . من هنا كونه ذكر ان الماركسيين الروس اعتقدوا « ان العامل هو انسان المستقبل » (٣) .

هكذا فهم لينين العمل الهادف بصيغته الكاملة ، ونتيجة لذلك ، وبحسب الظروف التي عاشها ، ناضل من أجل العمل ، ليضعه في موضعه الصحيح . ناضل ضد المؤمنين بالعمل التلقائي والعفوي ، وناضل ضد المكتفين بالاقوال من دون العمل ، ورد ليقرن القول بالعمل مرة أخرى . وقد كررنا الحديث عن النضال الاول بما فيه الكفاية فلننتقل الى النوع الثاني .

النضال الثاني موجه ضد كل الذين يقعون في المثالية وهم يرددون الاقوال الماركسية . ذلك أن المهم عدم الاكتفاء بالتعابير والالفاظ ، بل مقارنة الافعال بالاقوال ولذلك وضع لينين قوله

(١) المختارات ٢/٣ ص ٣٠٣ المبادرة الكبرى (١٩١٩) .

(٢) المختارات ١/١ ص ٨٢ مصادر الماركسية الثلاثة (١٩١٣) .

(٣) مجموعة في الادب والفن ج ١ ص ١٤٧ الاشتراكية البرجوازية الصغيرة والاشتراكية البروليتارية (١٩٠٥) .

« أقل من الجمل الطنانة ، وأكثر من العمل البسيط اليومي » (١) ذلك ان « مبتدلي الماركسية هؤلاء لم يتأملوا قط كلمات ماركس حول ضرورة الاستعاضة عن سلاح النقد بنقد السلاح . وعيشا يتذرعون باسم ماركس ، فهم يدبجون في الواقع قرارات تكتيكية مفعمة كليا بروح ثرثاري فرانكفورت البرجوازيين ٠٠٠ دون أن يدركوا ان زمن الثورة هو زمن العمل ، العمل من القمة ومن القاعدة في آن واحد » (٢) وذلك « لان الاممية ليست في الجمل ولا في الاعراب عن التضامن ، لا في القرارات بل في العمل » (٣) ان اصحاب هذه الماركسية الكلامية يشكلون تيارا انتهازيا ، « هو الاشتراكية قولاً والشوفينية فعلاً » (٤) . بمعنى الخضوع لمصالح البرجوازية والدول الرأسمالية ، ولذا كتب عن كاوتسكي بانه « قد برع في فن أن يكون ماركسيا بالاقوال وخادما ذليلاً للبرجوازية بالافعال » (٥)

لذا ، فكما أنه يجب ربط العمل بالنظرية العلمية وبالهدف الشيوعي (الوعي) لا بد من الانتقال من القول الى الفعل الهادف ، بالتنظيم ، وباللدعاية ، وبالتحريض ثم وبالثورة . حتى وبعد القيام بالثورة لا بد من تلازم القول والفعل للوصول الى العمل المحرر كهدف . ذلك أنه « من أفدح الشرور ، ومن أسوأ المصائب التي خلفها لنا المجتمع الرأسمالي القديم ، القطيعة التامة بين الكتاب والحياة العملية . ولهذا كان من فادح الخطأ الاقتصار على استيعاب ما هو وارد في الكتب حول الشيوعية . فان خطاباتنا ومقالاتنا ليست ، اليوم مجرد تكرار لما كان يقال فيما مضى عن الشيوعية . إذ ان خطاباتنا ومقالاتنا مرتبطة بعملنا اليومي ، بالعمل في جميع الميادين . . (٦) وبعد أن يبين ما يجب أن نتعلمه ،

(١) المختارات ٢/٣ ص ٣١٣ المبادرة الكبرى (١٩١٩) .

(٢) المختارات ٢/١ ص ١٠٠ خطتنا الاشتراكية الديمقراطية ٠٠ (١٩٠٥) .

(٣) المختارات ١/٢ ص ٥٢٢ الازمة نضجت (١٩١٧) .

(٤) المختارات ١/٢ ص ٣٧٤ الدولة والثورة (١٩١٨) . الآن ابتذلت كلمة شوفينية وحرقت لمحاربة كل قومية . ما عاناه لينين دائما وبالدرجة الاولى القومية المستغلة لسواها من القوميات .

(٥) المختارات ١/٣ ص ٨٧ الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي (١٩١٨) .

(٦) مجموعة ماركس انجلز . الماركسية ص ٦٢١ مهمات منظمات الشباب (١٩٢٠)

يضيف « » لن نتعلمها الا اذا ربطنا بصورة لا تنقسم عراها كل خطوة من العمل ، وكل خطوة في التربية والتعليم والدراسة ، بنضال جميع الشغيلة ضد المستثمرين » (١) .

وهذا يؤدي بطبيعة الحال الى فكرة ماركس وهي ان العمل معيار النظر ، ولينين بدوره يكرر هذا ، فالممارسة والتجربة تدحض كل ما هو فاسد نظريا (٢) ، كما ان هذا يؤدي الى ربط النظرية بالتطبيق . « . . . يجب عليهم ان يفهموا ان القضية كلها الان في التطبيق ، وانه قد أتت بالضبط اللحظة التاريخية التي تتحول فيها النظرية الى النشاط العملي ، وتحيا فيها النظرية بالتطبيق ، وتتصلح بالتطبيق ، وتثبت بالتطبيق ، وتظهر فيها صحيحة بوجه خاص كلمات ماركس : « كل خطوة من الحركة العملية أهم من دزينة من البرامج » (٣) .

هكذا كان نضال لينين ضد اصحاب القول من دون فعل ، كان كشفا لفعالهم الحقيقي المعادي للماركسية ، وكان تأكيدا مستمرا للعمل الهادف : كهدف ، وكنضال ، وكمعيار وهو ما ينسى عند المبسطين والتحريفيين ليبقى من العمل كونه تطبيقا ، لا غير بتسجيل الاستشهادات المختارة وحذف ما لا يناسب ! وبذلك وصلوا الى الاختيارية وبالتالي الى التلفيقية ، وهم يرفعون الماركسية شعارا !

بيد ان العمل بما هو هادف ، محور للديالكتيك ، حوله تنظم العلاقات الجدلية ، وبه تكون في الواقع وفي الهدف العام وفي البرنامج . من هنا تأكيدنا على ان الماركسية ، وبالتالي اللينينية هي علم العمل اولا ، ثم هي فلسفة العمل الهادف أخيرا ، وهذا هو امتيازها عن المثالية وعن المادية ، وهذا هو امتيازها كفلسفة ثورية تريد تبديل العالم لا تفسيره فحسب ، تريد تحرير العمل للوصول به الى هدف أسمى ، يكون معه الانسان مرادفا للعمل الهادف ، يكون به العمل حاجة اولى .

(١) مجموعة ماركس، انجلز ، الماركسية ص ٦٢١ مهمات منظمات الشباب (١٩٢٠) .

(٢) المرجع السابق ص ٦٣٨ .

(٣) راجع المادية والمذهب التجريبي النقدي : ص ٩٢ (عن انجلز) ترجمة منير مشابك . دمشق .

هذا الكتاب

هذه محاولة جدية لفهم الماركسية - اللينينية ٠٠
فالمؤلف يتعرض لانجازات ماركس العلمية في « رأس
المال » بالدرجة الاولى ، ويؤكد على أطروحة العمل التي
أسس فوقها العلم الماركسي ، ثم يستعيد التراث الفلسفي
الماركسي ليناقشه بحسب ما جاء في كتاب «رأس المال»
٠٠ هذا في القسم الاول من الكتاب ، أما في القسم
الثاني فيتابع المؤلف الماركسية بين يدي لينين ، ويحاول
ان يحدد فهمه وما اضافه اليها ٠٠٠ كل ذلك بهدف
واضح ومحدد وهو فهم الماركسية التي اكتملت
باللينينية بكونها علم العمل وتبشر بفلسفة العمل
المهادف ، لتحقيق ذلك على ارض الواقع لا في الخيال ،
نحو مزيد من الحرية للانسان ، ونحو مزيد من الغاء
الاستعباد ، نحو العمل كحاجة اولى ٠٠٠

« الناشر »